تجديد الذات

جون جاردنر

ترجمة

أحمد حموده

الكتاب: تجديد الذات

الكاتب: جون جاردنر

ترجمة: أحمد حموده

الطبعة: 2018

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

جاردنر ، جون

تجديد الذات / جون جاردنر / ترجمة: أحمد حموده

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

180 ص، 18 سم.

الترقيم الدولى: 8 – 675 – 446 –977 –978

أ – العنوان رقم الإيداع : 1936 / 2018

تجديد الذات





مدخل للقراءة

> لا يقوم النمو والتجديد إلا في ظل مجتمعات حيوية قابلة للرأي والرأي الآخر، تتفرد بحرية الفرد في التفكير والعمل به.. هكذا قامت الحضارات القديمة، وإن كان فيها بعض من التجاوزات والحرمان من حرية الأفراد،

والدافع الأساسي للتجديد هو عامل نفسي، يصاحبه آلية فكرية بتوجيه عقلي، لاحتياج البيئة إلى هذا التجديد.

ومنذ سنوات، ظهر العديد من المفاهيم للتجديد، منها الإصلاح والنهضة والثورة والتغيير.. الخ. وتظهر العديد من تلك المفاهيم وتختفي وفقاً للظروف الاجتماعيّة والتيارات الفكريّة السائدة، إضافةً إلى أنظمة الحكم السياسي في المجتمعات والصراعات الدائرة

ويكمن مفهوم التجديد، في أهمّيّة البناء والإنتاج المعرفي بشكلٍ عام، حيث إنّ المعرفة هي الغاية القصوى للمساعي البشريّة والمسار الطبيعي لوجودها، وتعتبر فلسفة التجديد والإصلاح عند البعض مبنيّةً على أساس المفاهيم الإبستيميّة، بحيث تتمحور حول تجديد الفكر الديني وإصلاحه.

في اللغة الفرنسيّة، التجديد يعني استبدال شئ قديم وإنشاء آخر جديد، والتجديد هذا إما أن يكون مادياً كتجديد المسكن والملبس، أو معنوياً كتجديد طرق التعليم أو المنهج الفكري.

ويعتبر التجديد مذموماً في المجتمعات شديدة التعلّق بعاداتها وتقاليدها كالمجتمعات الزراعيّة، ويعتبر محموداً في المجتمعات التي تقدّس روح الابتكار والاختراع كالمجتمعات الصناعيّة.

أما أندريه لالاند فإنه يعرّف التجديد على أنه إنتاج شئ جديد، قد يكون هذا الشيء ماديّاً – كالهاتف والطائرة والمذياع والتلفاز – أو معنويّاً – كالعلوم والأبحاث والمناهج العقليّة – وهذا التجديد غير مرتبط بالإنتاجات الماديّة والفكريّة، وإنما تبديل الشئ القديم الذي وجب استبداله

أما التجديد باللغة العربيّة – يكون التجديد في اللغة العربيّة بالأفكار أو الأشياء. والتجديد اصطلاحاً هو عبارة عن الفاعليّة الإنسانيّة التي مصدرها الفرد والمجتمع، ويقوم التجديد على مبارحة وضع الخمول والجمود والثبات، والسعي إلى النماء والنمو والتغيير الفكري والعملي، إضافةً إلى استخدام جميع الوسائل المتاحة في شتّى مجالات الحياة

تجديد ومعرفة النفس

عند الانتهاء من المرحلة الدراسية، أيا كانت درجاتها العلمية، يسمع الطالب الكثير من الوصايا من المعلمين، وأهم هذه الوصايا: "استمروا في

النمو والنضج ولا يفترن هممكم، ولتكن شهادة التخرج بداية لا نهاية"، فتلتهب المشاعر، ويتحمس الشاب لمواجهة الحياة بصدر رحب، لكن سرعان ما تنطفئ هذه الجذوة المشتعلة، حين يواجه الحياة بتعقيداتها، إن لم يجد من يمد له يد المساعدة لعبور العقبات، يشعر بالفشل، ويتحول إلى إنسان سجين نفسه.

وهنا.. يجب على الإنسان أن يعرف أن الفشل ليس نهاية الطريق، فمازالت الحياة ممتده، طالما هناك شهيق وزفير، فيجب أن يبحث في ذاته عن طاقة ما، أو موهبة ما تنير له الطريق، ويصنع الحياة لنفسه. وليس عيبا أن يتخذ طريقا جديدا من العلم، غير الطريق الذي تعلمه في المدارس والجامعات، فيمتهن الجديد طالما أن القديم غير مجدٍ في مسايرة الحياة، وعلى الإنسان أن لا يرمي اللوم على الظروف والمجتمع كلية، رغم أنهما شريكان حقا في فشل الفرد، إلا أنه من الممكن أن يكون العلم الذي تلقاه سابقا، لم يعد المجتمع في حاجة إليه، بعد هذا التطور الهائل الذي اكتسح جميع المجالات.

وليعلم الإنسان أن في داخله طاقة لم تكتشف بعد، وربما طاقات متعددة، ويمكن أن يكون متعدد المواهب، فعليه أن يكتشف نفسه بنفسه، إن لم يكن هناك من يكتشف تلك المواهب، وعليه أن يخلق لنفسه الفرص، فإن المجتمعات كثيرا ما تقتل المواهب، بأنظمتها المتغيرة.

غير أن تجديد النفس مطلوب في كل وقت وحين، فبتجديدها يتطور الإنسان، ويتطور عمله أيضا، كما قام العلماء بتطوير كافة

الصناعات والنظريات، فقدموا للبشرية ما يواكب العصر من آلات ومنتجات لم تكن بالماضي.

ويجب على المجتمع تشجيع وتنمية النفس التي تريد التطور، بإزالة العوائق التي تعترض طريق الإنسان، وإعطاء الفرص الكاملة وبالتساوي بين الأفراد، بعيدا عن التعصب لدين أو ملة أو فصيل مخالف، حتى نجد الإيجابية في سير الحياة، فهذا يطلق المواهب من سجنها المخبوء خلف كل نفس بشرية..

كيف نواجه الفشل؟

من الطبيعي أن يعيش الانسان في خوف دائم من الفشل، فالخوف في حد ذاته يعتبر حفاظا وحرصا على ما حققه من إنجاز، ورغم ذلك، نقول له أن بعض الخوف يكون مدمرا للمواهب، فيجب أن ترتفع فوق خوفه، ويتحلى بالشجاعة، بعد أن يضع الأهداف التي رسمها في طريقه، لأن الذين هزمهم الخوف من الفشل، فشلوا في تحقيق أحلامهم، وظلوا جامدين في أماكنهم يحلمون فقط، ولذلك يجب على الإنسان أن يتخلص بنفسه من الخوف المدمر، فإن لم يستطع، فعليه بالبحث عن مساعدة من الآخرين، حتى ينجو من هذا الجب المدمر.

الإنسان عليه أن يتخذ قراراته دون الالتفات إلى عيون النقد، أو أحداث الماضي، لأن النظر إلى أخطاء الماضي يجعل منها خطأ ضخما،

يعوق التفكير والمضي نحو المستقبل، في الوقت الذي نقول له أنه يجب الاستفادة من أخطاء الماضي، حتى لا يتكرر الفشل.

ولتتجنب الفشل، يجب مراعاة كل خطواتك السابقة، وتراقب نتائجها، لتعرف أين يجب التعديلات والتحسينات، ثم تتجنب هذه الوسائل المؤدية للفشل، وقم بتغيير الطرق والسلوك، وإن لم تجد أمامك، عليك الاستعانة بمن سبقوك، فحتما سوف تجد نتائج أفضل. ومن الطبيعي أن تجد في طريقك أنواعا كثيرة من البشر، تسمع منهم "افعل أو لا تفعل"، عليك ألا تلتفت للمحبطين، وتجاهلهم تماما، وافعل ما تجود به أفكارك، ولا تسمح لأحد أن يسرق أحلامك أو يكون سدا في طريق النجاح.

الحب:

لا شك أن لعاطفة الحب أثر جيد في سر الحياة بين البشر، فالحب عاطفة مثمرة في كل المجالات، يجعل التطور سمة من سمات الإنسان، يعطيه القدرة على العطاء والتجديد، بشرط أن يكون الحب متبادل بين المجتمع، لأنه بالحب سوف يرى الأمور بأكثر من عين، ويشعر بأكثر من قلب، وقد أثبتت الأبحاث أن الانسان الذي يقبل على عمله بحب، أفضل إتقانا وأكثر إنتاجا من غيره، لأن الحب عاطفة داخلية ذو طاقة جبارة، قادرة على تطور الإنسان، وتغييره إلى الأفضل.

التجديد:

قال "ليمان بريسون": "..... إن هدف المجتمع الديمقراطي أن يصنع أشخاصاً عظاماً... إن الأسلوب الديمقراطي لأداء أي عمل إنما هو الأسلوب الذي يحفظ ويطور قوى الإنسان الأصلية الكامنة على خير وجه".

ولا شك أن في حياة الإنسان عادات سيئة، وكلّ إنسان لديه ما يكفيه ويزيد من هذه العادات، ولكن الفطن أن يغير هذه العادات السيئة التي تسيطر على حياته، لأنها تستنزف جهده، وطاقته، وتفكيره، ولهذا فإنّ تجديد الحياة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمعنى أن يعيش الإنسان حرّاً من سيطرة مثل هذه الأمور، فعليه أن يفكّر ويهمل الأشخاص المحيطين.

فالإنسان خلق كائناً اجتماعياً، وهو بدون الآخرين مجرد كائن مهمل لا قيمة له، ولكن الإنسان قد يتعرض في حياته إلى علاقات تصير عبئاً عليه، فهذه العلاقات يجدر به أن يتخلص منها كونها تعتبر مصدراً من مصادر القلق والتوتّر، وأن يلتفت فقط إلى العلاقات التي تساعده على أن يحيا حياة أفضل.

وتجديد الفكر يعتبر من أهم الأمور، فحياة الإنسان تكون بلا معنى عندما يعيش جسده في القرن الحادي والعشرين، بينما يكون فكره من فكر العصور السحيقة، ومشاكل الأمة اليوم ناتجة عن تحجّر الفكر، وعن التعصّب للأفكار حتى لو كانت مغلوطة لأنّ هذا ما وجدنا عليه آباءنا .

استعن بالكتب المقدسة: الدين إكسير حياة الروح، والأشخاص الذين يسعون إلى التجديد حريٌّ بهم الالتفات إلى النواحي الروحية.

هناك قيود يفرضها المجتمع أو الطبيعة أو الموروثات على الفرد، تحول بينه وبين التجديد من نفسه، فيجب على الفرد أن يختار من المعتقدات القديمة ما يواكب عصره، وأن يتحرر من كل ما هو سلبي، وكل ما يعوق مسايرة عصره، ولا يأتي الاختيار الصحيح إلا بالعلم والمعرفة الحقة. وليس معنى ذلك أن نرمي كل المعتقدات القديمة، فهناك ثوابت عقائدية سليمة لا يمكن أن نستغنى عنها، ويجب الاستفادة منها أو تطويرها إن أمكن.

وهناك عقبات أخرى تقف بالمرصاد أمام المجدد، ألا وهي عدم وجود آذان واعية لما أتى به من تجديد، فهذا يؤدي إلى قتل العقول التي تسعى إلى الانطلاق بالفكر، ويجب على الأنظمة الاعتناء بكل ما يأتي به أي مجدد، ومحاورته ومناقشته، حتى لو كان التجديد ضئيلا جدا، فالضئيل يتسع كلما قمنا بتطويره.

وتسعى الكثير من الدول لإنشاء مؤسسة علمية، تدافع عن الأفكار نحو التطور والتجديد، وإزالة العوائق المادية الروحية، وتخطي اللوائح والقوانين العقيمة، وتقوم بتنظيم الأفكار أيضا، حتى يخرج التجديد إلى النور، ويتسنى للمجتمع الاستفادة منه.

كتب جون ستيوارت ميل يقول: "إن دولة تجعل من رجالها أقزاماً... لا تلبث أن تجد أنه بالرجال الصغار لا يمكن أن ينجز شيئا كبيرا"

ومازال الجهل والمرض وسوء التغذية والكبت السياسي والضيق الاقتصادي من أشد العوامل التى تعوق نمو الفرد، لكن كل مفكر تشغل باله اليوم القيود الجديدة الغامضة التي يفرضها التنظيم، لا جدوى من الأمل في أن يتحول من تلقاء نفسه الاتجاه إلى التنظيم الاجتماعي الشامل المتشابك، فالمجتمع الحديث يتسم وينبغي أن يتسم بالتنظيم الكبير المركب، ولا خيار لنا في الموضوع، فلا بد أن نعالج على خير وجه نستطيع أمر الضغوط التى يفرضها التنظيم العصري الواسع النطاق على الفرد، وكانت هذه الضغوط وما زالت موضوعاً أثيراً لنقاد المجتمع.

ولا يمكن لأي مجتمع ما أن يتطور ويتجدد طالما أنه بعيد عن عقيدة يلتف حولها، وطالما أنه بعيد عن مبادئ إنسانية آمنة، ولا يمكن أن يخرج من المجتمع عقل يشك ويفكر ويبدع ويتطور، لأن العقيدة والمبادئ الإنسانية منارة تنير العقول والوجدان، غير أنها ظل يحتوى الجديد من الافكار.

ومن المعروف أن أي علم من العلوم لم يبدأ كبيرا، مثله مثل أي شئ على وجه الأرض. العلم يبدأ فكرة، ثم تتطور الفكرة شيئا فشيئا، فيصبح عملا كبيرا، تستفيد منه البشرية.

ويعتبر هذا الكتاب نواة لفكرة تطور الذات الإنسانية، والتي جاء من بعدها علم التنمية البشرية، والذي تطور إلى أعلى مراتبه الآن. وطالما أننا ذكرنا علم التنمية البشرية، فيجب أن نعرف هذا العلم الذي بدأ ينتشر كالنار في الهشيم، وتكالب على دراسته الكثير من الناس.

فالتنمية البشرية: هي عملية تنمية وتطوير إمكانيات ومقدرات الإنسان، بهدف توسيع الخيارات المتاحة أمامه، باعتباره أداة وغاية التنمية، ورغم أن المفهوم قديم إلا أنه لم يتم تناوله كمفهوم (علم) مستقل.

أما الأساس الفكري للمفهوم فهو الانطلاق من أنه في نطاق التأثير المتبادل بين العوامل المادية والروحية المتفاعلة، فإن الإنسان هو العامل الحاسم في التطور الاجتماعي:

شروط التنمية البشرية:

وقد أشار المختصون في علم التنمية البشرية إلى أن للتنمية البشرية العديد من الشروط، والفكرة الأساسية التي تستند إليها التنمية البشرية هي أن تغيير العالم يبدأ من داخلنا، فالنجاح أو الفشل يتوقف أساسا على الإنسان وليس الظروف.

ينبغي أن نذكر أنفسنا بأن التعدد لا يمكن أن ينجح إلا في مجتمع يتمتع بقدر كاف من قوى الترابط؛ فبدون هذا الترابط يمكن أن ينجم

عن التعدد مجتمع متفكك مشتت. وبالمثل فإن مفاهيم الحرية التى لا ترتبط بمفاهيم النظام من أشد عوامل الانحلال والتفكك في الكيان الاجتماعي، ذلك أنه يمكن أن يكون ثمة نظام بدون حرية، لكن لا حرية دون قسط ما من النظام؛ ففي ظروف الفوضى الاجتماعية لا يمكن للفرد أن يستمتع بحريته.

د. أشرف جلال

مقدمة

كنت أتسلى بمطالعة كتاب في مكتبة جامعية إذ سمعتْ فتاة صغيرة متوردة الوجنتين تقول لصاحبتها: "الحق أن مجتمعنا وكل شئ فيه بسبيل الانحلال"، وتفرستها ملياً، ولابد لى أن أقول إن شيئاً فيها لم يكن يمت إلى الانحلال بأدنى صلة. لكن ماذا عن المجتمع ككل؟

الواقع أن كلمة إنحلال لا تعبر عما يحدث لنا حقيقة، فنحن نشهد تغييرات عميقة بعيدة الأثر بحيث يتعذر على الذهن أن يدرك معانيها ويلم بأطرافها جميعاً. ونحن لا نقف من معظم هذه الأحداث– وكشف أسرار الفضاء من الأمثلة البارزة– موقف المتفرج السلبى، بل نساعد على تحقيق تلك التغييرات، فهى إذن قصة حركة ديناميكية لا قصة تقاعس وانحلال.

لكن المرء لا يفوته أن يتبين في بعض نواحى مجتمعنا بذور الفساد التي يبذرها الجمود والتزمت بالفراغ الروحى الخلقى. ولا يتسنى إلا لأعمى البصيرة أو المتواكل أن يغفل أمر المهام الضخمة التى تواجهنا في مجال التجديد– في أداة الحكم والتعليم والعلاقات بين الأجناس وإهادة تطوير المدن، والشئون الدولية، وأهم من ذلك في تجديد عقولنا وقلوبنا نحن.

وفي كتابي السابق "تفوق" أكدت أهمية المُثل العليا، لكن المثل العليا ليست كافية، فهناك أنواع من التفوق– أنواع هامة جداً– لا ترتبط حتماً بالقدرة على التجديد. فالمجتمع الذي بلغ قمة التفوق قد تكبله الأوضاع الجامدة التي تهدمه في نهاية المطاف. وقد يأخذ نظام نفسه بأعلى المثل، ومع ذلك يكون حبيس التواكل والرضا بالحال الذي ينذر بسقوطه.

ولقد بدأنا نفهم سر عمليات النمو والاضمحلال في المجتمعات وندرك خيراً من أى وقت مضى كيف ولماذا يفقد مجتمع دبتْ فيه الشيخوخة قدرته على التحول، ويقضى على كل طاقة خلاقة بين أعضائه، ثم بدأنا نفهم الظروف التي يتسنى فيها للمجتمع تطوير أو تجديد نفسه.

لكن تجديد المجتمع يتوقف في نهاية الأمر على أفراد، ولكل فرد اليوم مشاكله. وفي إحدى التمثيليات التليفزيونية الأخيرة يعلن عالم مجنون مداعباً بأصابعه أزرار جهازه الالكترونى "أن الفرد قد انتهى زمانه، ولن يتسنى البقاء إلا إذا دارتْ أمور المجتمع كما تدور آلة دقيقة محكمة. وهذا يقتضى القضاء على الفردية".

ويخشى كثير من الناس اليوم أن يكون صدى أفكار "أورويل" و"هكسلى" نذيراً صادقاً بما يأتى من أحداث ويشكون في القدرة الفردية بالمعنى القديم على البقاء إزاء المطالب الجماعية المعقدة للمجتمع الشعبى الحديث. فالخطر خطر حقيقى ولابد من مجابهته بكل ما لدينا من موارد

وهذه الموارد لحسن الحظ لها وزنها ، فنحن نعرف الآن الشئ الكثير عن الأخطار التي يتعرض لها الفرد في المجتمع الحديث، كما نعرف كيف ندرأ بعضها ولا حاجة بنا إلى أن نغل أيدينا بالتدابير التنظيمية التي ابتدعناها لتخدمنا.

ولكى يتحقق للمجتمع التجديد المنشود ، فإنه ينبغى أن يهيئ البيئة المواتية لذوى المواهب الخلاقة رجالاً ونساء، كما ينبغى أن يعد القادرين منهم على تجديد أنفسهم، ونعلم الآن بفضل البحث العلمى الحديث، الشيء الكثير عن الشخصية الخلاقة وعن ظروف البيئة التي تشجع الخلق والابتكار، أما عن تجديد النفس فنعلم أن الناس رجالاً ونساء لا يتحتم أن يقعوا فريسة التقاعس والاسترخاء في العقل والروح عندما يبلغون منتصف العمر، ولا يتحتم أن تلبن فناهم فيودعوا، كما يفعلون، عزم الشباب وإقدامه ويفقدوا القدرة على التعلم والتطور، فإن تجديد النفس أمر ممكن.

لكن التجديد بالنسبة للمجتمع والفرد سواء بسواء– يتوقف بعض الشئ على عوامل التحفيز والإيجابية والإيمان والقيم التي يتشبث بها الناس وكل ما يضفى معنى على حياتهم، كان "سوذيرن" ممثل القرن التاسع عشر الشعير يرقب صبياً صغيراً يريد أن يخرج ليلحق برفاقه الأكبر منه سناً، لكنه يخاف اعتراضهم عليه، وعندما بدأ الصبية يعودون إلى البيت قال له "سوذيرن" مداعباً:

"يا نختبئ وراء الستار حتى لا يعرفوا مكاننا" فنظر إليه الغلام مغتماً وقال: لكن، أليس من الجائز ألا يعبأوا بالأمر؟".

إنه سؤال ينبغى أن يوجه إلى كل مشروع يمس المجتمع، ذلك أن تجديد الجماعات والمنظمات لا يتهيأ إلا إذا كان ثمة من يعبأ بالأمر ويهتم به ويوليه عنايته. أما التواكل والتقاعس وثبوط الهمة وتراخى الروح الحافزة، فهى من أبرز الصفات التي تتميز بها أية حضارة في طريقها إلا الاضمحلال.

فالمتواكلون لا يحققون شيئاً، والذين لا يؤمنون بشئ لا يغيرون شيئاً إلى ما هو أفضل وهم لا يجيئون بجديد ولا يكونون في عون أحد، حتى أنفسهم. إن كل من يدرك وضعنا على الإطلاق يعلم أننا لا نتعرض لخطر الانهيار بسبب الحاجة إلى القوة المادية ، وإذا تعثرنا فلن يكون ذلك إلا نتيجة لهبوط في القلب والروح.

إن الكتب التي تعالج موضوع الطاقة الخلاقة لا تناقش عادة الانهيار والتجديد الروحى الخلقى والكتب التي تعالج التنظيم الاجتماعى لا تبحث عادة في قدرة الفرد على التعلم طوال عمره، ولم أربط بين هذه الموضوعات الهامة بنزعة الكاتب إلى التجوال العشوائى. لقد ربطت بينها لأنها تشكل جميعاً عناصر مشكلة واحدة، وما لم نعتن بمقتضيات التجديد، فإن أنظمتنا وأجهزتنا التي دبت فيها الشيخوخة لا مفر من أن تحطم صرح حضارتنا في نهاية المطاف، وما لم نعالج أمر الطرق التي يكبت بها المجتمع الحديث شخصية الفرد، أطفأنا الشعلة الخلاقة التي تجدد روح

المجتمعات والناس سواء بسواء، وما لم نعد الرجال والنساء من ذوى المواهب المتنوعة المبتكرة والقدرة على التجديد الذاتى فإن أروع الأنظمة الاجتماعية في العالم لن تجدينا فتيلاً.

وبعد، فإننا لن نجدد من أنفسنا ولا مجتمعنا ولا عالمنا المضطرب ما لم هَيأ للجميع رؤية واضحة لشئ جدير بحرصنا على إنقاذه والذود عنه، ويخيم على الطريق أمامنا خطر الحرب الذرية فتعوق فظاعة الرؤية وتظلم الطريق، إننا نتصدى لمهمة شاقة بمجابهة هذا التهديد وفي نفس الوقت بتهيئة واضحة لما وراءه. فإذا أخفقنا في التطلع إلى ما وراءه ضللنا السبيل إلى المستقبل الطويل الأمد، ونسينا نوع العالم الذي كنا نتمنى إقامته لو هَيأ لنا السلام.

تجديد النفس وتحريك الطاقات
بين الفرد والمجتمع

الفصل الأول

النمو والانحلال والتجديد

النظام الدائم التجديد:

يكشف لنا علماء الآثار كل بضعة أعوام عن حضارة قديمة أخرى ازدهرت فترة من الزمن ثم اندثرت ويدرك ذهن العصر حتمية التاريخ ويخشى تفلياته فيبادر بالسؤال: "ترى هل جاء دورنا الآن؟".

وبدلاً من أن نناقش هذا الموضوع الذي طال الجدل فيه، أطرح سؤالاً من نوع آخر: "ماذا لو حاول المرء أن يتخيل مجتمعاً لديه حصانة نسبية ضد الانحلال– مجتمعاً دائم التجديد، ترى ماذا يكون شكله ؟ وما هى عناصر هذه الحصانة؟".

ولدينا اليوم من العلم بطبيعة التنظيم البشرى ما يمكننا من تحديد مواصفات عناصر مثل هذا المجتمع– مجتمع لا يدوم إلى الأبد، بل مجتمع تمتد حيويته فترة أطول كثيراً من الزمن المعتاد.

ولو كان طول العمر هو الميزة الوحيدة لمثل هذا المجتمع لكانت المغامرة كلها عقيمة سخيفة. لكن المجتمع الذي عرف سر التجديد إنما يكون مجتمعاً بديعاً نابضاً بالحياة لا في مستقبله البعيد بل في حاضره على

الفور. ولما كان التجديد المستمر يتوقف على ظروف تشجع اكتمال شخصية الفرد فإنه يكون مجتمعاً لائقاً بالأحرار.

وبالرغم من أن المجتمع الوحيد القادر على تجديد نفسه على فترة طويلة من الزمن إنما هو المجتمع الحر، فإن هذا لا يدع مجالاً للرضا والتسليم بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، إننا لا ننبض في حياتنا إلى مستوى مثلى العليا كمجتمع حر، ثم إننا أبعد ما نكون عن الاستجابة لمقتضيات مجتمع دائم التجديد وإن كان كلا الأمرين في متناول أيدينا.

ولم تصمدْ الأفكار الشائعة أو النظريات العلمية التي حاولت تفسير قيام الحضارات وإندثارها إزاء التمحيص الدقيق، لكن مؤرخي المستقبل من خلفاء "سينجلر" و"توينبي" ليس لهم أن ييأسوا، ذلك أننا شرعنا اليوم في كشف النقاب عن حقائق النمو والانحلال بما يبشر بالاهتداء إلى النظريات السليمة.

والحق أنه موضوع لا يصلح فيه التصميم السهل البسيط، ذلك أن أساليب النمو والانحلال تختلف من مجتمع إلى آخر. ثم إن أنواعاً عديدة من التجديد تحطم نظرية قيام الحضارات وسقوطها، فإن المجتمع المضمحل قد ينطوي على عناصر نابضة بالحياة، كما أن المجتمع النابض بالحياة لا يخلو من عناصر الاضمحلال. وخلاصة القول إننا نتناول بالبحث عمليات معقدة شديدة التعقيد، وإن لم تبلغ درجة تجل عن الفهم والإدراك.

ومن الضرورى أن نتناول بالبحث لا مجرد حيوية المجتمعات، بل حيوية الأنظمة والأفراد. فهذا وذاك موضوع واحد، ذلك أن المجتمع ينحل عندما تفقد أنظمته وأفراده حيويتها.

وقد وصف أحد المسئولين وكالة حكومية دبت فيها الشيخوخة بقوله: "إنها لا تلقى من الجمهور انتباهاً كبيراً فأدركتها سنة من النوم. وعندما تتغير الحكومة تتقلب في مضجعها محمومة– لكنها لا تصحو من سباتها"، ويعرف رجل الأعمال أن هناك مؤسسات يقظة، مفتوحة العين، وأخرى خاملة أدركها النعاس، كذلك يعرف كل مدير جامعة أن بعض الأقسام الأكاديمية تستمتع بحيوية دافقة، بينما بتراكم الصدأ على بعض آخر.

فما هى العوامل التي تصنع مثل هذه الفروق؟. إنه سؤال لم يحظ قط بدراسة تفصيلية منتظمة لكن البحث الدقيق يكشف لنا عن عمليات واحدة تعمل عملها في جميع الأمثلة المذكورة، عمليات لها دورها في قيام وسقوط الأنظمة البشرية ففى سقوط روما أمام زحف البرابرة وإفلاس مصنع قديم تمتلكه أسرة واحدة، وفي وكالة حكومية تتعثر في قيود تزمنها عامل مشترك أكبر مما يحسب المرء لأول وهلة.

وعندما تكون المنظمات والمجتمعات شابة حديثة النشأة فإنها تتسم بالمرونة والليونة قبل أن يشلْ حركتها الجمود والصرامة، مستعدة لتجربة أى شئ ولو مرة واحدة، وعندما يشيخ التنظيم أو المجتمع تتضاءل حيويته وتستسلم مرونته للتزمت والجمود وتتهاوى طاقته الخلاقة ويفقد قدرته

على التصدى للتحديات المفاجئة، ولعلنا نذكر مرونة الشباب وقدرته على التحور والطريقة التى تتضاءل بها هذه المرونة على مر السنين، ولنذكر القوة واليأس والجرأة التي تتصف بها بعض الأجهزة والمجتمعات الجديدة– مثل حركة تعمير مناطق الحدود الأمريكية– ونتأمل كم تنوء هذه الخصال بعبء التقاليد والتاريخ ؟

وبالمثل فإن الصبى مثال الانطلاق في مجال التجربة الجديدة فتراه مقبلاً على المعرفة بالأشياء في شوق ولهفة غير هياب، مستعداً لتجربة أى شئ، وأهم من ذلك متحرراً من العادات والاتجاهات الراسخة، وعلى مر الأيام والسنين يفقد هذه الخصال التى لا تقدر بثمن، فلا يلبث أن يجمع حصيلة من العادات والاتجاهات والآراء، فإذا لم يفعل، بقى صبيانى النزعة عاجزاً تماماً عن التواؤم مع بيئته، لكن كل اتجاه أو عادة مكتسبة بالرغم من فائدتها من شأنها أن تجعله أقل تقبلاً لما لم يألفه من طرق أخرى في التفكير والتصرف ويصبح أقدر على أداء وظيفته في بيئته المعتادة وأقل قدرة على التحور والتواؤم مع التغييرات.

وربما أوحى كل هذا بأن أهم ما فى الأمر هو: كيف يظل المرء شاباً ؟ لكن الشباب يعنى عدم النضوج، وبالرغم من أن كل إنسان يود أن يكون شاباً فإن أحداً لا يود أن يتجرد من النضج، على أن الأمرين يرتبطان ببعضهما بعضاً لسوء الحظ كما تبين كثير من المتهافتين على الشباب.

ومعظم العمليات التي تقلل المرونة وتضعف القدرة على التحور لدى المجتمعات والأفراد إنما هي في واقع الأمر عمليات نضوج، وهي بهذه الصفة لا يمكن تجنبها بل إنها مستحبة في مراحلها الأولى، ولعل عملية النضوج قد أضعف روح اليأس والمغامرة في مجتمعات الحدود لدينا، لكنها جعلتها أيضاً مكاناً أصلح للحياة المطمئنة وأقرب إلى النظام وأمتن بنياناً من بعض النواحى الهامة. وكل من اشترك في تأسيس نظام ينظر إلى الوراء في شوق وحنين إلى الأيام الأولى التي اتسمت بالاضطراب والروح المعنوية العالية، لكن لا يكاد أن يكون هناك من يتمنى حقيقة العودة إلى ذلك المستوى البدائى من الأداء، وإذا كنا نعجب بالأطفال فإن أحداً لا يتمنى لهم أن يظلوا إلى الأبد في هذه المرحلة من النمو.

وقصارى القول إننا لا نود أن نقف عملية النضوج بالرغم من أنها تحد من الإمكانيات وتقلل من المرونة والقدرة على التحول.

وقد يسأل القارئ "ألا يمكن إذن أن يتقدم الفرد (أو التنظيم أو المجتمع) ويخطو نحو النضوج دون أن يخطو نحو الجمود والشيخوخة؟، أليست المسألة مسألة معرفة الفرق بين الاثنين والمضى في هذا والتوقف عن ذاك؟". والأمر ليس بهذه البساطة لسوء الحظ. وقد تكون ثمة مرحلة تبلغ فيها حيوية الشباب الغضة ورشد النضوج وكفاءته لوناً من التوازن المثالى لكن لا سبيل إلى تجميد هذا الوضع ووقف التغيير، كما يفعل المرء

بآلة سينما مترلية عند منظر معين، ذلك أن العملية دائمة الحركة أبعد ما تكون عن الثبات على حال.

فهل يعنى هذا أنه ليس ثمة بديل عن الركود النهائي؟ كلا، فإن كل فرد أو تنظيم أو مجتمع لابد له أن ينضج، لكن الأمر يتوقف كثيراً على الطريقة التي يحدث بها هذا النضج، فالمجتمع الذي يتكون نضجه ببساطة من اكتساب أساليب ثابتة في تصريف أموره مصيره إلى القبر– حتى لو تعلم أداء العمل بمهارة متزايدة، فإن ما ينضج في المجتمع الدائم التجديد إنما هو نظام يمكن أن يحدث في إطاره التجديد والتطوير والمولد من جديد بصورة دائمة مستمرة.

إن تصورنا للنمو والانحلال يسيطر عليه ما نراه في عمر حياة الفرد، حياة الحيوان أو النبات، فهى نبت ينبثق ويزدهر ثم يموت. أو كما يقول الشاعر: "تموت إلى الأبد الزهرة التي أينعت ذات مرة"، لكن الصورة اللائقة بالمجتمع الدائم التجديد هى صورة بستان شامل أو حوض من الزهور فيه ما ينبت وفيه ما يزدهر ثم فيه ما يموت– وإن بقى الحوض يانعاً حياً...

وكان السؤال الكلاسيكي في الإصلاح الاجتماعي عبر القرون هو كيف يمكن علاج هذا الداء أو ذاك ؟ واليوم يتحتم علينا أن نسأل سؤالاً من نوع آخر، هو "كيف نصمم جهازاً أو نظاماً يصلح (أي يجدد) نفسه بصورة مستمرة ، بادئين بمشاكل حالية معينة متنقلين إلى مشاكل لا يستطيع أن نتنبأ اليوم بها؟".

شئ من القديم وشئ من الجديد:-

لابد أن يبرز أى بحث حديث في عمليات النمو والانحلال والتجديد أهمية الاستمرار والتغيير كليهما في الأنظمة البشرية.

وليس صحيحاً ما يراه البعض من أن التغيير من ثمار القرن العشرين.

ويصر "نيقولاس مورى بتلر" على أن التغيير قديم قدم الأزل، بحيث إن آدم في جنة عدنان توقف مفكراً لحظة ما ليقول: "يا حواء. إننا نعيش في فترة انتقال"، لكن ليس في وسع ذى فكر سليم أن يزعم أن القرون الأولى قد شهدت من التغيير مثل ما شهد القرن العشرون، ذلك أن عجلة الحياة في هذا القرن قد زادت سرعتها زيادة جذرية وسيطرت سرعة التغيير على الفكر الحديث سيطرة قوية. وينظر كثير من الأمريكيين نظرة عاطفية إلى التغيير ويرون أنه في ذاته ظاهرة طيبة لكن الموت شكل من أشكال التغيير، وكذلك التأخر والانحلال، لذلك يتحتم على المجتمع أن يلتمس ألوان التغيير التى تدعمه وتثريه، لا تلك التى تشتته وتفنيه، وإلا فمن منا لم تزعجه أحداث السنوات الأخيرة من مظاهر النمو الطائش والتوسع السريع الطليق الذي يفلت من كل زمام ويحطم كل قيد؟. وإزاء هذه الأحداث لا يسعْ أكثر الناس تفاؤلاً إلا أن يتساءل: "أليس هذا تغييراً ينطلق من عقاله ونمواً يحطم من القيم الأخرى ما يجعله شراً مستطيراً؟".

وليس التجديد مجرد ابتداع الجديد، بل هو كذلك عملية تسخير نتائج التغيير لخدمة أهدافنا، فعندما اخترع أسلافنا السيارة، تحتم عليهم وضع قواعد المرور، وكلاهما مظهر من مظاهر التجديد، وعندما يهدد تضخم المدن بالفوضى يتحتم علينا أن نعيد النظر في مفاهيمنا عن تخطيط المدن والحكم المركزى.

ولما كانت فكرة التغيير تسيطر على أذهاننا، فإن من واجبنا أن نحذر من الظن بأن الاستمرار عامل ضئيل الأثر- أو عامل معوق- في التاريخ البشرى، فهو عنصر حيوى هام في حياة الأفراد والأنظمة والمجتمعات، ومما له أهمية خاصة لدوام المجتمع قيمه وأهدافه الطويلة الأمد ، ثم إن هذه القيم والأهداف تتطور هى الأخرى على مر الزمن فإنها تمكن المجتمع من امتصاص التغيير دون أن يفقد شخصيته وأسلوب حياته المميز، ولها أثر كبير في تقير اتجاه التغيير وتكفل للمجتمع الثبات فلا تزعزعه كل ريح تهب.

ولا تفوق النظرة الثاقبة رؤية الترابط الوثيق الدائم بين الاستمرار والتغيير. فالعالم الذي يعكف على تجارب الاختراع الضخمة في معمله قد يبدو تصويراً مجسماً للتغيير، ومع ذلك فهو يؤدى عمله بنجاح بفضل عوامل استمرار معينة متغلغلة في حياته، فهو كعالم، يعيش في ظل تراث قديم عمره بضعة قرون في ثوبه الجديد العصرى وعمره آلاف السنين من حيث جذوره الممتدة عبر الأجيال، فكل خطوة يتخذها إنما تقوم على

معارف واتجاهات وعادات ومهارات تبلورت عبر السنين. فهو جزء من تراث دائم ونظام فكرى متين، لكنه نظام يهيئ لنفسه التجديد المستمر.

ويعود بنا هذا إلى تأكيد المحدثين لأهمية هذه العملية، تأكيداً يوحى به بمعانيه الواسعة المؤرخ "أرنولد تونبي" إذ قال: "إن الحضارة حركة... وليست ظرفاص أو رحلة أو ميناء".

وجدير بالملاحظة أن النظرة الحديثة إلى العملية، عملية التلاحم المتشابك بين الاستمرار والتغيير تهدم المفاهيم العتيقة في التحرر والمحافظة ، وكما يقول "بيتر دروكر" بحق: إن الطريق الوحيد للبقاء في عالم في مهب ريح التغيير نهياً لأخطار تهدد سلامته يوماً بيوم، إنما هو التجديد، إن الثبات الوحيد الممكن إنما هو الثبات على الحركة.

الفصل الثاني

تجديد النفس

إصنعها بنفسك أيها الطير الحبيس:-

درج الخطباء في حفلات التخرج على إزجاء النصح للشباب بقولهم: "استمروا في النمو والنضج ولا يفترن هممكم ، ولتكن شهادة التخرج بداية لا نهاية".

والفكرة وجيهة، لكن نسبة عالية من الشباب المستمع إلى الخطب لا يأخذ بها، فلا يكادون يبلغون منتصف العمر حتى تنطفئ جذوة الحركة فيهم، بل إن بعض الخطباء قد انطفأت جذوتهم أيضاً، فما السر في ذلك؟.

ولا يحدثنا لسوء الحظ خطباء حفلات التخرج عما يصرف الشباب عن نصحهم له بدوان تحصيل العلم. ولقد جاهد المشتغلون بتعليم الكبار جهاداً بطولياً لزيادة فرص التطوير الذاتي ونجحوا نجاحاً باهراً، ولعله يحسن بهم الآن أن يولوا وجوههم نحو الشئ الذي يعوق التطوير الذاتى حقيقة– ذلك هو السجن الذي يصنعه الفرد بيده ويحبس فيه نفسه، أو بمعنى آخر، عجز الفرد عن تطوير ذاته وتحريرها من اغلالها.

وليس السجن هو الصورة الدقيقة لأن الفرد لا يتوقف عن التعلم في كل نواحى حياته في وقت واحد، وكم توقف الشباب عن التعلم في الجوانب الدينية أو الروحية من حياتهم قبل أن يتخرجوا في كلياتهم بزمن طويل؟ ويستقر بعضهم على أوضاع اقتصادية وسياسية ثابتة لا تتغير قبل أن يتجاوزوا الخامسة والعشرين أو الثلاثين، وما أن يبلغ معظمهم الخامسة والثلاثين حتى يتوقفوا عن تحصيل مبارات جديدة أو التحول إلى اتجاهات جديدة في أية ناحية هامة من نواحى حياتهم.

وكلما نضجنا ضيقنا تدريجيا من نطاق وتنوع حياتنا، فنستقر على اهتمامات قليلة من بين شتى الاهتمامات التى قد نتابعها، ونقتصر على صحبة عدد قليل من بين كافة من نخالطهم من الناس ونصبح صيداً وقع في شبكة من الصلات الثابتة، ونستقر على طرق مرسومة في تصريف أمورنا.

وتمر السنون وتتسم نظرتنا إلى الجو المألوف المحيط بنا بجمود الفكر شيئاً فشيئاً، ويدب الكلل في نظرتنا المرهفة إلى الوجوه التى نقابلها كل يوم وإلى كل مظهر من مظاهر حياتنا اليومية.

وهذا هو السبب في أن السفر تجربة حية بالنسبة لمعظمنا. ففى مواطننا نفقد القدرة على رؤية ما أمامنا، والسفر ينفض عنا غيار التبلد فنسترد ألواناً من اليقظة يسمو وينهض بكل تجربة، وفي الأسفار مزايا كثيرة، لكن من أسباب بهجته يقيناً أننا نستعيد قسطاً من إحساس الصغار الذى لم يتراكم عليه الصدأ.

فليس غريباً أن نجد التغييرات الكبرى في حياتنا- كالزواج والانتقال إلى مدينة جديدة وتغيير العمل والطوارئ الوطنية- تحطم أنظمة حياتنا وتكشف لنا فجأة عن السجن الذي صنعناه بأيدينا. وعلى عكس الطائر الحبيس في القفص، فإننا لا نتبين أننا في سجن حتى نحطمه وننطلق منه.

ومن التجارب الملحوظة خلال الحرب العالمية الثانية أن كثيراً من الناس رجالاً ونساءً من اضطروا إلى تغيير نظام حياتهم قد اكتشفوا في داخل أنفسهم مواهب وقدرات لم تكن تخطر لهم على بال. فيالسخرية القدر أن يقتضى تجديد النفس على نطاق واسع هذه الحرب والنكبات ألا ما أفدح الثمن.

وعندما نتعلم تجديد النفس دون حروب ونكبات، نكون قد اكتشفنا سراً من أهم الأسرار التي في وسع مجتمع أن يتعلمها سراً يميط اللثام عن موارد جديدة تشيع الحيوية في جانب المجتمع، ونكون قد صنعنا شيئاً لتجنب تصلب الشرايين الذي يصيب كثيراً من المجتمعات.

وطبيعى أن يقاوم التغيير كل من فقد قدرته على التطور والتحور، وأشد الناس تشبثاً بالقديم البالى رجل فقد قدرته على تجديد نفسه.

التطوير الذاتى:

لا يعرف أحد السبب في أن بعض الناس يبدون قادرين على تجديد أنفسهم بينما يعجز غيرهم عن ذلك، لكننا نعرف بعض الملامح الهامة

التى تميز الرجل القادر على تجديد ذاته، ونعرف ما فى وسعنا أن نفعله لتنمية التجديد الذاتى.

ولا تنتهى قط بالنسبة للرجل المجدد نفسه مهمة تطوير إمكانياته وعملية اكتشاف ذاته، ومن الحقائق المريرة التي لا تقبل الجدل أن معظم المخلوقات البشرية يعيشون حياتهم دون إدراك لكامل قدراتهم ومدى إمكانياتهم، ولقد قضيت فترة طويلة نم صباى في كاليفورنيا بريف "موذرلود" وأصغيت في شغف أى غلام في سنى إلى أقاصيص قدامى الباحثين عن الثورة في تلك المنطقة وبعضهم ممن اشترك في حملة البحث عن الذهب في "كاونددايك"، ويروى كل منهم قصة رائعة عن منجم ذهب مفقود في الخلاء وإن اختلفت التفاصيل، فإما أن يموت المكتشف الأصلى في المنجم، وإما أن يفقد صوابه أو يُقتل في معركة، أو يعود إدراجه ظناً منه أن المنجم لا قيمة له. لكن الفكرة الرئيسية كانت ثابتة لا تتغير: ثروة دفينة لم تمسسها يد، وبت أعتقد أن هذه الأقاصيص تصور طرازاً من التعليم يمارسه أغلبنا، فالمنجم يجرى العمل فيه فترة وجيزة ثم لا يلبث أن يهجر.

وتطوير القدرات إنما هو من زاوية على الأقل حوار بين الفرد وبيئته، فإذا كان لديه ما يعطيه مما تريده بيئته تهيأ لقدرته أن تتطور، وأى غلام صغير ذى قدرة حقيقية على التلويح بقبضتيه لا يلبث أن يكشف هذه القدرة مبكراً. فالفتاة الصغيرة ذات موهبة اجتذاب الكبار لن تجد مشقة في اكتشاف هذه الموهبة. لكن معظم القدرات لا تحركها هكذا

سهولة ظروف الحياة الطبيعية وهناك من إليكم المغمورين ممن تصورهم شخصية الشاعر ملتون عدد أكبر مما يتصور المرء ولاسيما في عصر قد يعيش فيه طراز واضح الملامح من شخصية ملتون دون أن يشعر به أحد، ويقيناً دون أن يلقى جزاء أو شكوراً من أحد. إن لمعظمنا إمكانيات لم تطور قط لسبب بسيط هو أن ظروف حياتنا لم تطلق هذه الإمكانيات من عقالها.

واكتشاف المدى الكامل للإمكانيات الفردية أمر لا يتركه الرجل المجدد نفسه لمصادفات الحياة، بل أمر يتابعه بشكل منتظم أو على الأقل باهتمام وشغف حتى آخر يوم في حياته، ويتطلع مشوقاً إلى حوار دائم لا يمكن التنبؤ به بين إمكانياته ومطالب الحياة– لا مجرد المطالب التي تصادفه بل المطالب التي يبتدعها. ولا أقصد بالإمكانيات مجرد المهارات، بل كامل قدراته ومدى طاقاته في مجال الحس والتعجب والتعلم والفهم والحب والطموح.

والهدف النهائي لنظام التعليم إنما هو أن يلقى على كاهل الفرد نفسه عبء متابعة تعليمه. ولن يكون هذا نهجاً مسلماً به من الجميع حتى نتغلب على اعتقادنا الغريب بأن التعليم هو ما يحصله الطالب بين جدران المدرسة ولا شئ دون ذلك. فالتعليم فضلاً عن أنه يستمر بعد انتهاء فترة المدرسة لا يقتصر على ما قد يحصله المرء في برامج تعليم الكبار. ذلك أن العالم مدرسة لا نظير لها، والحياة معلم بارع لمن لا يخشاها.

وفي وسع المجتمع أن يصنع الشئ الكثير لتشجيع هذه التنمية الذاتية، وأهم شئ يستطيع أن يصنعه هو إزالة العوائق التي تعترض تحقيق إمكانيات الفرد، ويعنى هذا القضاء على التفاوت الصارخ في تكافؤ الفرص، التفاوت المفروض على بعض مواطنينا بسبب التفرقة العنصرية والعسر الاقتصادي ثم يعنى عملية إيجابية مستمر "لإطلاق المواهب من عقالها" ومساعدة الشباب على تحقيق مواهبه الكامنة. ولا يعود النفع هنا على الفرد فحسب بل على المجتمع بأسره، فلابد للمجتمع المجدد أن ينهل دواماً من ورد المواهب من كافة القطاعات والطبقات، وأهم مقومات التجديد الاجتماعي جميعاً هو قدرة الموهبة على الحركة.

معرفة الذات:

لكن اكتشاف الموهبة لا يعدو أن يكون جانباً واحداً لعله الجانب الأسهل من التطوير الذاتي، والجانب الآخر هو المعرفة الذاتية، وكلما زادت معرفتنا بطبيعة الإنسان، زاد عمق مغزى الحكمة القائلة "أعرف نفسك" بالرغم من قدمها.. وبساطتها الخادعة.. وصعوبة إتباعها. ولا يتيسر إلى اليوم إلا لأقل الناس بعض العلم بكل ما تعنيه هذه الحكمة الذهبية. وقد أثبت علم النفس وطب الأمراض العقلية مدى ارتباط الصحة العقلية بالنظرة الموضوعية إلى النفس وبائتلاف النفس والشعور وبتقبل النفس، وقد ساعدنا "إريكسون" على فهم مدى أهمية وخطورة بحث الصغير عن شخصيته.

ولا نستطيع أن نستعرض هنا المعاني الكاملة لهذه الآراء، بل لا نستطيع مجرد الشروع في بحث مختلف الظروف السيكولوجية التي تسهل أو تعوق تجديد النفس، ولعله من المفيد أن نرقب الطريقة التي تحدث بها لطمات الحياة وقساواتها آثارها على الروح المتجاوبة بطبيعتها وندرس العمليات التي تعزلنا بها المخاوف والوساوس أحياناً عن أعمق تجارب الحياة- وهو نوع من السجن لا يخفف منه أنه "ملجأ تلوذ به" لكن هذه الموضوعات تبعدنا عن موضوع هذه الدراسة.

ويقول "جوش بيللنجز": "أصعب شئ على المرء أن يعرف نفسه، لا بل أشد الأمور إزعاجاً له، وقد دأبت الكائنات البشرية على استخدام مختلف الحيل البارعة للهروب من أنفسهم، والعالم الحديث غني بهذه الأساليب، ففي وسعنا أن نشغل أنفسنا بالعمل ونملأ حياتنا بشواغلها ونشحن أدمغتنا بالمعرفة ونربط عجلتنا بالناس ونضرب في الأرض بصورة لا تدع لنا وقتاً لاكتشاف أنوار العالم المخيف العجيب في داخلنا، وكثيراً ما نعرف عن معرفة أنفسنا ولا نود الاعتماد على أنفسنا، ولا نبغي العيش مع أنفسنا، فلا يكاد ينتصف العمر حتى يكون أغلبنا هاربين من أنفسهم".

وقد قال الشاعر "جورج هربرت" من قديم الزمن:

عليك أن تخلو إلى نفسك وحيداً بعض الوقت ما استطعت سبيلاً.

أقرئها التحية ونأمل ماذا ترتديه روحك.

وهذا مذهب طيب لتجديد النفس، فالإنسان الذي أصبح غريباً على نفسه قد فقد قدرته على التجديد الذاتى القويم، ولم يعد بوسعه أن يعود فينهل من ينابيع كيانه الشخصى.

وقد كتب نيبور يقول:

"إن التغلب على النفس إنما هو من زاوية نتيجة حتمية للمعرفة الحقيقية بالنفس، فإذا تسلطتْ على النفس الأنانية أضواء الإدراك الحقيقي لوضعها، تمخضت عن التجربة قوة حياة جديدة".

شجاعة مواجهة الفشل:

من الأسباب التى تجعل الناضجين أقل تقبلاً للتعلم من الشباب أنهم أقل رغبة في المخاطرة، والتعلم لون من المخاطرة لا يستسيغون الفشل فيه، وفي مرحلة الطفولة عندما يتلقى الطفل العلم بنسبة طبيعية حقيقية لن يبلغها بعد ذلك أبداً فإنه يتلقى في نفس الوقت من حالات الفشل عدداً مذهلاً، حسبك أن ترقبه حتى ترى ما لا عدله من تجارب الفشل، وتتبين ضآلة أثر الفشل في تثبيط همته. وكلما مر عام من عمره قل تقبله للفشل فما أن يبلغ سنى المراهقة حتى يكون استعداده للمخاطرة بالفشل قد تضاءل كثيراً، ثم كثيراً ما يدفع الآباء أبناءهم إلى هذا السبيل بأن يغرسوا في نفوسهم الخوف ويعاقبوهم على الفشل أو بتزيين النجاح وإلباسه ثوباً أغلى وأثمن مما ينبغى. فما أن ينتصف العمر حتى يكون أغلبنا

قد حشد رأسه بسجل ضخم لأمور لا ينتوى تجربتها من جديد بعد أن جربها مرة وفشل فيها، أو جربها مرة ولم يحقق فيها من النجاح ما يقتضيه احترامه لنفسه.

ومن مزايا الدراسة المنظمة بالمدرسة أنها تحمل الطالب على أن يختبر نفسه في مختلف أنواع النشاط التى لم يخترها بنفسه، أما الطالب في تعليم الكبار ففى وسعه عادة أن يختار أنواع النشاط التى يسمح لنفسه بأن يختبر فيها، ويستغل هذه الحرية في الاختيار استغلالاً كاملاً، فتراه يميل إلى الاقتصار على الأمور التي يتقنها ويتجنب الأمور التي فشل فيها أو التي لم يجربها قط.

إننا ندفع ثمناً باهظاً من خوفنا من الفشل وهو عائق شديد في طريق النمو، يكفل التضاؤل والضيق المضطرد في أفق الشخصية ويحول دون الإقبال على الكشف والتجربة وليس ثمة تعليم دون بعض الصعوبة والتعثر. فإذا أردت أن تداوم على التعلم فلابد من أن تداوم على المخاطرة بالفشل طوال حياتك، فالمسألة بهذه البساطة– وعندما منح "ماكس بلانك" جائزة نوبل قال:

"إننى إذا أنظر إلى الوراء... إلى الطريق الطويل المتشابك الذي أدى إلى الكشف عن نظرية الكم، يتمثل أمام خاطري قول "جوث" بأن الناس سوف يرتكبون الأخطاء دائماً ما داموا قد جاهدوا من أجل شئ ما..".

الحب:ـ

وسمة أخرى من سمات الإنسان المطور نفسه أن له علاقات مثمرة متبادلة مع غيره من الناس. وهو قادر على تقبل الحب، كما أنه قادر على منحه– وكلاهما أمران أصعب منالاً مما يتصور الناس عامةً . وهو قادر على الاعتماد على غيره وعلى اعتماد غيره عليه، ويستطيع أن يرى الحياة بعين غيره ويحسها بقلب غيره.

فما علاقة ذلك بتجديد النفس؟ إن الإنسان الذي لا يستطيع أن يحقق هذه العلاقات حبيس نفسه معزول عن قسم كبير من عالم التجربة، ذلك أن البهجة والعذاب اللذين يحس بهما أولئك الذين نحبهم إنما هما جزء من تجربتنا نحن فنحس بانتصاراتهم وهزائمهم، وآمالهم ومخاوفهم وغضبهم وإشفاقهم، وبذا تزيد حياتنا ثراء.

على أن مقاسمة من نحب تجاربهم نتيجة ضئيلة للحب، ذلك أن الحب والصداقة يذيبان جمود النفس المنعزلة ويثيران مشاعر جديدة ويغيران الحكم على الأمور ويبقيان على الجوانب الفرعية العاطفية التى لابد أن يقوم عليها كل فهم عميق للشئون الإنسانية.

التحفيز:ـ

والرجل المجدد نفسه عالى الهمة والحافز، وتشكل الجدران التي تحيط به كلما كبر في السن قنوات تخف فيها المقاومة، فإذا بقى في هذه

القنوات سارت الأمور في يسر وسهولة، فإذا شاء الخروج منها اقتضى الأمر شيئاً إضافياً من الدفع أو الحماس أو الطاقة.

وهذا أمر قوامه إلى حد ما طاقة بدنية صرفة فسواء كانت اهتمامات الإنسان فكرية أو روحية، فإن ثمة عنصراً بدنياً فائق الأهمية في قدرته على التعلم والنمو والصمود أمام الهزائم والتغلب على الصعاب وتخطى وقضاء الحياة في حيوية ونشاط ولين. وكل من يهمه أن يحيا حياة خلاقة إنما يولى أعظم عناية واحترام للجهاز الدقيق العجيب الذي يتكون منه.

ولكن إلى جانب الاحتفاظ بصحة طيبة، هل من الممكن حقيقة أن نصنع شيئاً ما في مجال بث الحوافز في نفوسنا؟ والجواب عن ذلك: "ربما".

ولا يفوت أحداً أن يلحظ الموارد المدهشة للطاقة التي تبدو في متناول أولئك الذين يجدون فيما يفعلونه متعة أو معنى، ويعرف الإنسان المجدد نفسه أنه ما لم يكن شديد الاقتناع بما يصنه كان أجدى له أن يبحث عن شئ آخر يمكن أن يقنعه و "يملأ رأسه" وبدهى أننا لا نستطيع جميعاً أن نقضى الوقت كله متابعين ما نقتنع به أعمق اقتناع، لكن ينبغى على كل إنسان سواء في عمل أو في نشاطه الخارجى أن يصنع شيئاً يهتم به اهتماماً عميقاً. ولكى يفلت من سجن نفسه يجب أن يكون ما يصنعه شيئاً لا يتركز على ذاته أساساً في طبيعته.

وكم من أناس نراهم يتركون عملاً يهتمون به أعمق اهتمام لينصرفوا إلى عمل لا يثير اهتمامهم لأنه يعود عليهم بمال أوفر أو منصب أرفع أو سلطة أكبر، وكم من مرة نلتقى بقوم في منتصف العمر مشدودين إلى وجه من أوجه النشاط التي لا تثير فيهم أدنى اهتمام– كلعب البريدج مع أناس، لا يميلون إليهم حقيقة، وتلبية الدعوات إلى حفلات الكوكتيل التي نبعث فيهم الملل– ويفعلون "ما ينبغى أن يفعلوا"، ومثل أولئك القوم إنما يعيشون ويتحدثون إذا استطاعوا أن يبدأوا حياة جديدة فيصنعوا شيئاً بسيطاً واحداً يثير اهتمامهم حقيقة ، شيئاً صغيراً بوسعهم أن يصنعوه باقتناع وحماس متأجج.

على أن التقاليد ورسميات الحياة المصطنعة، ناهيك عن العادة والروتين والقصور الذاتي، تدفعنا بعيداً عن مصادر اهتمامنا وإيماننا بحيث نحتاج جميعاً إلى دروس تمهيدية قليلة في الطريقة التي نستعيد بها التوافق مع كياننا والانسجام مع أنفسنا.

وعندما قال إمرسون: "كان لنا ذات يوم كؤوس قداس من الخشب وتساوسة من الذهب، أما الآن فكؤوسنا من الذهب وقساوستنا من الخشب، وضع يده على أمر جوهرى في علاقة الناس بتنظيماتهم وأجهزتهم. فنحن على الدوام "نبنى الكنيسة ونهدم العقيدة" فينتصر الشكل والمظهر على الروح والجوهر. ويقوم أى نظام اجتماعى على تحمس الناس له واقتناعهم به. وعندما تتسع أرصدته يخبو الحماس، فتتضخم المبانى وتضعف الروح.

وتتجدد الأنظمة والأجهزة البشرية على يد أناس يرفضون الرضا والاقتناع بالقشور وبالمظاهر الخارجية للأشياء. كذلك فإن تجديد النفس يتطلب بعض الشئ نفس القدر من نفاد الصبر مع المظاهر والشكليات الخاوية.

فمن أراد أن يعود إلى موارد حيويته اقتحم الواجبات الكاذبة للحياة وحاول أن يتبين الأمور التى يؤمن بها حقيقة، ويستطيع أن "يضع قلبه فيها" فيوليها صادق اهتمامه. ويشبه الرجل المجدد نفسه في ذلك المارد الأسطورى "أنتيوس" الذي كان مصارعاً لا يقهر ما دامت قدمه تمس الأرض ومر جدير بأن نذكره في حضارتنا المتشابكة التنظيم المحشودة بلغو الكلام، إننا ننحرف شيئاً فشيئاً بعيداً عن حقائق الحياة، حتى أصبحت الكلمات أكثر حقيقة من الأشياء التى تزمر إليها، وأًبحت العوامل القوية في حياتنا بالتدريج بعيدة عن متناول اللمس والحس، وتحولت شيئاً فشيئاً إلى جداول إحصائية وألفاظ مبهمة؛ لذلك فمن الحكمة أن ينفذ المرء خلال هذه العبارات التجريدية المصطنعة المبهمة ليعود بين الحين والحين إلى الأرض الصلبة من التجربة المباشرة.

وطبيعى أن في وسع الإنسان أن يبلغ في الشكوى من زخارف حضارتنا وأوضاعها المصطنعة لكن كثيراً من ذلك قصد به نفع الإنسان، ففى السيمفونية الموسيقية من الصناعة ما في التليفزيون، وفي البنسيلين من الصناعة ما فى أنوار النيون ومعظم ما تصنعه الحضارة قد ابتدع لخدمتنا بطريقة ما، فلا مجال إذن للشكوى منها، لكن الرجل العاقل يدير

لها ظهره بين الحين والحين ويسعى إلى تجديد نفسه بأشياء يستطيع أن يراها ويسمعها ويحس بها، عن طريق الاتصال المباشر بالطبيعة، والعلاقات وجهاً لوجه مع الأصحاب، ويبتدع شيئاً بيديه.

ويحسب بعض الناس أن التحفيز عنصر سحرى غامض (من المبادأة والطموح والرغبة في الكسب) يزود به الأفراد فيدفعهم إلى أمام كما تزود السيارة بالوقود. وطبيعى أنهم في شدة العجب من طبيعة هذا العنصر السحرى، وفي شوق إلى المزيد منه– ولاسيما عندما يعتقدون أن ثمة خريراً في الصهريج الذي يحتفظ فيه المجتمع بهذا العنصر، كما يفعلوم اليوم.

لكن التحفيز ليس وقوداً يزود به الناس كما تزود به الآلة، إنه صفة أو خصلة يتسم بها الأفراد، وترتبط يعض الشئ بحيويتهم البدنية، كما تنجم بعض الشئ عن عوامل اجتماعية كأساليب تربية النشأ ، ونظم التعليم ، وتهيؤ أو عدم تهيؤ الفرص، واتجاه المجتمع إلى إطلاق أو إخماد الطاقة الموجودة، والاتجاهات الاجتماعية نحو التشجيع او التثبيط وحيوية القيم التي يتقاسمها المجتمع.

ومن التفسيرات الشائعة في مجتمعنا عن انخفاض الحافز إرجاعه إلى حياة الترف أو "الرفاهية الزائدة" ولعل في هذا التشخيص شيئاً من الصحة التي لا تخلو منها الحكمة القديمة المعروفة في الملاكمة بأن الملاكم الجائع يصعب هزيمته. كذلك من المسلم به أن معظم الأفراد (والمجتمعات) الذين يتصدون لإنجاز أهداف حيوية كبرى يتسمون بشئ

من التقشف. لكن الفقر لا يأتى على الدوام بالهمة العالية، فإن بعض سكان العالم المعدمين أكثرهم بلادة، وخمولاً كذلك فإن الرواج لا يثبط دائماً من الحوافز، والواقع أن المجتمع الذي ينعم بالرواج– بحكم قدرته على تهيئة الفرصة لكل فرد– قد يطلق طاقات ربما ظلت نائمة دون ذلك. ثم إن بعض أنواع القدوة الخلاقة تقتضى حداً معقولاً من سعة الرزق ولا تتهيأ للمحرومين الذين يقاسون الشدائد حرية التجربة ومحاولة الأساليب الجديدة في أداء الأعمال، ففى كل عمل خلاق قدر معين من المخاطرة أو روح المغامرة التي كثيراً ما تختنق في المجتمع الذي يعيش عيشة الكفاف.

وخلاصة القول إنه، وإن كان يرضى النزعة الطهرية فينا أن نعتقد أن الرواج يفتر من همتنا، فإن فقدان الحافز لهذا السبب أمر مبالغ فيه كثيراً.

وقد ينادى البعض: كما يفعل توينبى، بأن المجتمع في حاجة إلى لون من التحدى. لكن ما من مجتمع قد سيطر على بيئته وعلى نفسه بدرجة القضاء على كل التحديات. وكم من أناس استسلموا للنوم إذ فاتهم أن يدركوا أن التحدى قائم دون ريب، والمجتمعات من ناحية تخلق تحدياتها.

وللعالم "دافيد ماكلاند" تحت طريف في أن أساليب تربية الأطفال هي التي تحدد مستوى الحوافز في المجتمع، وليس لدينا من المعرفة بالموضوع ما يحملنا على القول في يقين بأن أساليب معينة في تربية الطفل تهيئ مستويات عالية في التحفيز، لكن الخبراء المتخصصين يرون أن مما

يهيئ الجو لهذه النتيجة أن تضع الأسرة مثلاً عليا لتصرفات الطفل فتشجع عادة الاعتماد على النفس وتتجنب الإسراف في نزعات التسلط الاستبدادية.

والصلة بين التعليم ومستوى الحوافز في المجتمع أوثق مما يدرك معظم الناس فتتأثر الأهداف التي يضعها الصغير لنفسه تأثراً شديداً بما يحيطه به الكبار من إطار الآمال ويزوده النظام التعليمي بروح ما يتوقعه المجتمع منه من حيث مستوى الأداء. فإذا كان المجتمع متهاوناً في مطالبه، اعتقد الصغير أن هذا هو ما يتوقعه منه، فإذا توقع المجتمع منه الكثير كان ذلك أدعى إلى أن يتوقع الكثير من نفسه، وهذا هو السبب في أنه من المهم أن يخلق المجتمع جواً يشجع بذل الجهد الصادق الأمين، وطبيعى أن يكون هذا الجهد في المجتمع الناشئ أيام النضال والبناء موضع التقدير الكبير، فإذا ما كللت آماله بالنجاح تهاون في طلب الجهد الشديد.

الفصل الثالث

تنوع المواهب

التعليم من أجل التجديد:ـ

بدأنا نفهم كيف نوجه التعليم في سبيل التجديد ؟ لكن لابد لنا من التعمق في هذا الفهم، فإذا أنشأنا الطفل على مجموعة مدروسة من المعتقدات الثابتة كفلنا بذلك تخاذله المبكر،

والحل البديل هو أن ننمى ونطور مهاراته ومواهبه وعاداته الذهنية وأنواع المعرفة والفهم التي تصبح بمثابة أداة لتطوره ونموه الدائم، وبهذا نكون قد هيأنا نظاماً يكفل لنفسه التجديد الدائم.

ولعل هذا يوحى بمستوى نحكم به على فاعلية كل نوع من أنواع التعليم– وعلى هذا الأساس فإن جانباً كبيراً من التعليم اليوم قليل الأثر عديم الفاعلية بشكل ملحوظ، فكثيراً ما نعطى صغارنا الزهور المقطوفة في الوقت الذي ينبغى علينا فيه أن نعلمهم زرع نبتهم بأيديهم. ونشحن أدمغتهم بثمار ما سبق من ابتكار بدلاً من أن نعلمهم التجديد والابتكار. وننظر إلى الذهن على أنه مخزن ينبغى ملؤه بينما ينبغى أن ننظر إليه كأداة تُستخدم.

وطبيعى أن مدارسنا لا تستطيع أن تشغل نفسها كلية بتعليم التجديد والابتكار، إذ ينبغى أن تهتم بالاستمرار كما تهتم بالتغيير سواء بسواء، فهناك جوانب استمرار في ظروف الحياة الإنسانية، وجوانب استمرار في تراثنا وفي الدروس التي ينبغى أن نتعلمها من الماضى، وعندما يتعلم الصغار ماذا هم ومن هم، يفيدهم أن يفكروا فيما يودون أن يصبحوا– كأفراد وكشعب– وفي المستويات العليا من التعليم لابد أن تتاح لهم فرصة الدراسة الناقدة لأهداف مجتمعهم المشتركة– وهذا عنصر رئيسي من عناصر الاستمرار– كما تتاح لهم فرصة إعادة تقييم هذه الأهداف بما يكفل لهم الحيوية والصحة– وفي كل مجال يتم فيه الفكر أو العمل الخلاق، يبنى الفرد جهده على تراث من العمل السابق، وصحيح أن المبالغة في اشتغاله بهذا الميراث قد تقضى على قدرته على الخلق والابتكار، وصحيح أن أسلوب بناء جهوده على ميراثه هذا قد يكون بالثورة عليه، ولكن مع ذلك فإنه نقطة البداية له.

على أن النظام التعليمي قد لقى دائماً نجاحاً نسبياً ملحوظاً في معالجة جانب الاستمرار، أما الحاجة الملحة اليوم فهى تعليم النشأ على معدل متزايد من التغيير. ويخشى بعض المراقبين أن هذه الحاجة سوف تدفع المدارس إلى متابعة جنونية لأحدث المبتكرات، لكن الأمر على عكس ذلك، فالتغيير سريع بدرجة يصبح معها "أحدث الأشياء" اليوم قديم الطراز بمرور الأيام وبلوغ الصغار مبلغ الرجال، لذا يجب أن يعلموا بطريقة تمكنهم من أن يتعلموا بأنفسهم الأشياء الجديدة التى يأتى بها العد. وهذا يعود بنا إلى جوهر الموضوع.

إننا نبتعد اليوم فعلاً عن تعلم الأشياء التي سرعان ما تصبح قديمة، ونتقدم صوب الأشياء التي سوف يكون لها أبعد الأثر وأطول الأمد على قدرة الصغيرة على الفهم وأداء العمل، ونبذل المزيد من العناية بالتعليم في وسائل التحليل وطرق معالجة المشاكل، ويعنى هذا في كثير من الموضوعات زيادة العناية بالمبادئ الأساسي وتضاؤل العناية بالتطبيق العملى الفورى، كما يعنى في كل الموضوعات تعليم عادات فكرية تفيد في المواقف الجديدة- كالفضول العلمى وصفاء الذهن والموضوعية واحترام الأدلة والقدرة على التفكير الناقد.

بين التعميم والتخصص:-

التعليم من أجل التجديد تعليم على التنوع إلى حد كبير، وتجرنا هذه الحقيقة إلى جدل قديم معروف وهو: هل نستهدف إعداد المتخصصين أم ذوى المعلومات العامة؟ وبالرغم من أن لكثير من رجال التعليم آراء قاطعة في الموضوع، إلا أنه يتضمن جوانب معقدة غاية التعقيد.

فالتخصص سمة كونية من حيث الأداء الوظيفي البيولوجي، تلاحظ في تكوين الخلايا بأى جهاز معقد التركيب في المجموعات الحشرية وفي التنظيم الاجتماعي البشرى، وفي المجتمعات الإنسانية يعتبر نظام تقسيم العمل أقدم مما سجله التاريخ فازدهر حيثما قامت الحضارات.

ويقتضى التخصص اهتماماً خاصاً بوظائف معينة مختارة وإعمال وظائف أخرى، وللجهاز الإنسان قدرة على التغير السلوكي على نطاق واسع لا يخطر بالبال. ومن هذا النطاق الواسع لا يستطيع الفرد أن يطور إلا شريحة صغيرة من المجموع. وكل أنواع العلم لون من التخصص من حيث إنها تقتضى تدعيم بعض جوانب التجاوب دون الأخرى. ولعل أوضح مثال لهذه العملية تعليم اللغة ، فللطفل قدرة على فهم وإخراج مجموعة من منوعة ضخمة من أصوات الكلام. ومن هذه المجموعة يأخذ في إدراك ونطق الأصوات الموجودة خاصة في لغته– ولا تمثل إلا شريحة من المجموع– فإذا ما كبر وجد صعوبة شديدة في إدراك ونطق الأصوات التي لا تضمها لغته، وبهذا نصبح جميعاً أخصائيين رغماً عنا، وهكذا الحال دائماً.

وقصارى القول إن التخصص ضرورة بيولوجية اجتماعية فكرية ولم يتجاوز قط أقصى ما يمكن أن يصل إليه التعليم تعلم شئ واحد في عمق كبير فالفنان العظيم أو العالم الكبير يبلغ القمة دائماً عن طريق التركيز الشديد على استغلال جانب صغير من إمكانياته.

واضح إذن أننا لا نستطيع الاستغناء عن التخصص، ولا ينبغى أن نفعل. لكن التخصص في العالم الحديث قد تجاوز كثيراً كل ما نعرف فى الماضى. إن هناك لسوء الحظ أعمالاً كثيرة لا يمكن أداؤها بنجاح إلا على يد رجال ونساء احتفظوا ببعض القدرة على أداء العمل على وجه عام شامل– كالقيادة والإدارة وبعض أنواع الابتكار، ووسائل الاتصال

والتدريس وكثير من مسئوليات تربية الطفل والحياة الوطنية، وفوق ذلك فإن الرجل المتخصص المتعمق في تخصصه قد يفقد المرونة اللازمة في عالم متغير، وقد يكون عاجزاً عن إعادة توجيه نفسه عندما يتقدم العلم وتتغير التكنولوجيا ويصبح تخصصه قديماً بالياً.

وجدير بالملاحظة أن المسألة ليست مسألة الاستغناء عن المتخصص، بل مسألة الاحتفاظ ببعض القدرة على أداء العمل ذى الطابع العام، والقدرة على التحول إلى تخصصات جديدة إذا ما اقتضت الظروف.

وتتطلب كافة التنظيمات الاجتماعية نوعاً من التخصص، وهذا أيضاً له مساوئه ومميزاته سواء بسواء فالمرءوسون المحرومون من فرصة البت في الأمور وإصدار أنواع معينة من القرارات قد يفقدون القدرة على إدارك هذه القرارات. ومن سخرية الأمور أن يكون من نتيجة مثل هذا التخصص الرئاسى أن يفقد الرؤساء في مجال القدرة الوظيفية أكثر مما يفعل مرءوسوهم، فليس أعجز من رئيس بدون سواعد معاونيه، وقد تشهد طبقة مالكة للعبيد انحلالاً في قدرتها يهدد بقاءها. ولهذه العملية نظائر ملحوظة في المجموعات الحشرية، فبين بعض أنواع النمل الذي تأخذ ممالكه بنظام السخرة، يختفى كثير من القدرات المعتادة، كبناء العش ورعاية الصغار، بل القدرة على تناول النمل طعامه بنفسه، ولا تتبقى إلا "عسكرية" متضخمة أو نظام محكم لأعمال السخرة..

وفى المجتمعات الإنسانية ليس ثمة سبب على الإطلاق يحول دون احتفاظ المتخصص بالقدرة على العمل العام الشامل، ويتوقف إمكان ذلك حقيقة على حوافزه من ناحية وعلى الطريقة التي تعلم بها من ناحية أخرى وعلى طبيعة النظام أو المجتمع الذي تنتج فيه قدراته من ناحية ثالثة.

وتنحو المجتمعات والتنظيمات في المراحل المبكرة من التطور إلى أن تكون بسيطة مرنة غير موزعة الاختصاصات، وهذا يلقى عبئاً كبيراً على الفرد ليكون "عاماً" من حيث وظائفه، وهكذا نجد "الإنسان ذا القدرات الشاملة الجانعة، وهنالك في المجتمعات الناشئة التي لم يستقر كيانها أو في باكورة مرحلة من مراحل تاريخه. (ولعلنا نذكر تنوع المواهب لدى الرواد الأوائل من "الآباء المرسسين" لأمريكا).

وفي المراحل التالية تطور المجتمعات والمؤسسات نظاماً متشابكاً لتوزيع العمل والتخصص الدقيق والفصل بين كل وجه من أوجه النشاط– الأمر الذي يدفع الفرد إلى التخصص، ويستطيع كل دارس لموضوع التنظيم أن يعلق على الأخطار المحتملة لمثل هذا التقسيم في العمل وتحديد كل نشاط، ويقدر ما يقضى على تنوع قدرات الفرد يحد من قدرة التنظيم على تجديد نفسه، فإذا كان الأفراد متخصصين تخصصاً صارماً غير مستعدين للتغيير، فإن التكلفة الإنسانية للتغيير تكون مرتفعة جداً ويقاومها المجتمع في عناد، أما إذا كانوا مرنين قادرين على تعلم الأساليب الجديدة، فإن التكلفة الإنسانية للتحول من جديد تكون

منخفضة ولا تلقى كبير مقاومة، ومعنى ذلك باختصار أنه في عالم التغيير يعتبر الفرد المتعدد المواهب المتعدد القدرات رصيداً لا يقدر بثمن.

وفي وسع المدير البعيد النظر أن يتخذ من تقوقع مرءوسيه واستقلال كل منهم بوجه من أوجه النشاط، فهو يعيد التنظيم ليقضى على الخطوط التنظيمية "المتكلسة" ويجرى التنقلات بين موظفيه (بل لعله يضع نظاماً للتناوب على الوظائف) للتخلص من التخصص الذي لا ضرورة له، فضلاً عن اتساع آفاقهم، إنه يعيد تحديد الوظائف ليجردها من قيود التقسيمات الصارمة.

ولا يمكن للمجتمع الحر أن يعاد تنظيمه بمثل هذا الأسلوب المتيسر المجمل، ولعل أجدى وسيلة على مر الزمن لبلوغ نتائج مرضية إنما تكون عن طريق النظام التعليمي، ففى وسع التعليم أن يضع أساساً عريضاً حاسماً لتعليم الفرد ونموه طوال العمر، فالفرد الذي يبدأ بمثل هذه القاعدة الواسعة تتهيأ له دائماً بعض القدرة على التصرف كإنسان عام شامل النظرة، بالرغم يختاره من ألوان التخصص العميق في أحسن حالاته من شأنه أن يطور موارد الفرد الداخلية حتى يستطيع أن يتعلم بنفسه وبوازع من نفسه، ويعده للتصدى للتحديات غير المنظورة والبقاء كفرد متنوع القدرات في عالم لا يسبر له غور والأفراد الذين يتعلمون على هذه الطريقة إنما يحتفظون بالمجتمع نفسه مرناً متحوراً متجدداً.

الفصل الرابع

شئ جديد تحت الشمس: الإبتكار

قال "ليمان بريسون": "..... إن هدف المجتمع الديمقراطي أن يصنع أشخاصاً عظاماً... إن الأسلوب الديمقراطي لأداء أى عمل إنما هو الأسلوب الذي يحفظ ويطور قوى الإنسان الأصلية الكامنة على خير وجه".

ولا تعتبر التدابير التنظيمية لمجتمع طليق في ذاتها من وسائل التجديد، فميزتها أنها تغذى الأحرار ، وهؤلاء الأحرار، في خير حالاتهم، موارد تجديد لا تنفد، ولعلنا نتعلم شيئاً عن تجديد المجتمعات إذا تأملنا أنواع الرجال الذين يسهمون أكثر من غيرهم في هذه النتيجة وهم المجددون المبتكرون، لكن علينا أولاً أن ندرس عملية التجديد والابتكار.

وقد أكد بعض الكتاب أن عملية الابتداع أو الابتكار تبدأ بمشكلة تتطلب الحل، وهذا صحيح عادة لكن الإنسان مخلوق فضولى مكتشف، لا يسعه أن يبقى ذهنه القلق خاملاً حتى لو لم يكن ثمة مشكلة تتطلب الحل، ولا يستطيع أن يمنع نفسه من تأمل الأشياء وتقليب الأفكار في ذهنه ومحاولة صنع تشكيلات جديدة متأملاً منقباً عن كل جديد، ولا شك أن كثيراً من أوجه التقدم البارزة قد تمت من بداية الأمر نتيجة لمثل هذا الكشف بفضل العقول الموهوبة، وكم من عالم سئل: "ماذا حملك

على تجربة هذا الشئ بالذات ؟" فكانت إجابته: "مجرد فضول وشغف لمعرفة ماذا يحدث؟.

ويشوه الابتكار أحياناً بإبراز أنه قوة مبتدعة تقضى على "الوضع الراهن" وصحيح أنه كذلك أحياناً لكن تأكيد هذه الصفة المحطمة يمكن أن يكون وصفاً مضللاً، فقد أثبت التاريخ أن الوضع الراهن في المجتمعات الإنسانية، بدائية كانت أو متحضرة، لا يتهدده خطر من جراء الابتكار بل يتهدده خطر الأزمات القديمة المعروفة- مثل قلة المواد الغذائية، وانتشار الأوبئة وعدوان المجتمعات المجاورة، ومنافسة التفوق التكنولوجي والانحلال الداخلى- وفي مثل هذه الحالات قد يزيد الابتكار المثمر من فرص البقاء لنظام يتهدده الخطر. (من المضحك أن قيام المبتكر بدور المنفذ لا يجعله حتماً موضع قبول أنصار الوضع الراهن- ومثلهم كمثل الأطفال الذين قد يخشون الطبيب أكثر مما يخشون المرض).

وكما تمر المجتمعات بمرحلة من الأزمات يتحتم عندها أن تتقدم لتبلغ حدوداً جديدة وإلا هلكت، فإن مجالات النشاط تبلغ هذه المرحلة . فكما ينفد مورد الطعام بالنسبة للسكان ، تنفد إمكانيات فن من الفنون بالنسبة للفنانين كما تنفد احتمالات بحث من البحوث أمام الأساتذة.

وصورة الابتكار كمعول يهدم "الوضع القائم" الهادئ لا تمثل الواقع في العالم الحديث. فاليوم يندر أن يجد المرء وضعاً قائماً هادئاً في غمرة تيارات التغيير العلمى والمجتمعى، وحلول اليوم سرعان ما تصبح

عتيقة غداً، والنظام الذي ينعم بالتوازن اليوم لا يلبث أن يفقد توازنه غداً، والابتكار لازم على الدوام للتصدى لمثل هذه الظروف المتغيرة.

واليوم لا يحتمل أن يكون عباقرة المبتكرين ذوى أثر فعال ما لم تصادف أعمالهم أزمة أو سلسلة من الأزمات تهيئ أذهان الناس لتقبل الجديد وتعتبر قصة "بول ريفير" أبعد ما تكون عن الملاءمة كدليل للعمل في مجتمع حديث متشابك. كانت الأمور بالنسبة له بسيطة غاية البساطة فقد رأى الخطر فأطلق صيحة الإنذار ، واستيقظ الناس فعلاً ، أما في المجتمع الكبير المشغول، فإن "بول ريفير" من طراز عصرى لن يسمع صيحته أحد في دوامة الحركة وضجيج الأصوات فإذا أطلق صيحة الإنذار فلن يستجيب له أحد، فإذا ثابر على الإنذار انصرف الناس عنه كشخصية مزعجة، ثم يجئ يوم يحدث فيه حادث يؤيد نبوءته، فيجرى المواطن، الذي سبق أن رفض الاستماع إلى النذير، إلى النافذة ويخرج رأسه، متدثراً، ويصيح: "لماذا لا ينبئنى أحد بهذه الأمور؟".

وفي تلك المرحلة يكون المواطن مستعداً لتأييد بعض الحلول الجديدة ، وينتهز المبتكرون العقلاء القصة لاستغلال هذه الحقيقة. وقد قال أحد المشتغلين بنظام جديد للمرور الجوى من فترة وجيزة: "لم أكمل فكرتى بعد، لكنها لن تجد اليوم قبولاً من أحد على أى حال لأن الأمر لا يشغل الناس بدرجة كافية. ولسوف تقع في غضون عامين كارثة جوية مثيرة أخرى تجذب أذهان الناس إلى هذه المشكلة. وهنا تجئ ساعة الصفر بالنسبة لى وتحين فرصتى".

ولسوف يفترض القارئ طبعاً أنه ليس المواطن المذكور المتدثر ليلاً، وهذا افتراض غير مأمون العاقبة، وإلا فكم منا يستطيع أن يتبين حقيقة في زحمة الحياة العصرية بذور الأفكار الجديدة والأساليب الجديدة التي سوف تصوغ شكل المستقبل؟ ويندر أن يجئ الشئ الجديد بين الطبول والزمير. ولا تبدو أوجه الابتكار التاريخية مثيرة براقة إلا على صفحات كتب التاريخ، فلو كان في ميسورنا أن نسأل عنها الذين عاصروها ما كانت الإجابة السائدة أنهم قاوموها أو رحبوا بها، بل لكانت "لم أكن أعرف أنها تحدث".

ويلقى الضوء على دور الناقد ميل الناس إلى النعاس المعوق للتغيير وفي أوائل هذا القرن أطلق إبراهام فلسكنر ثورة في تعليم الطب بإيقاظ الجمهور بعرض رائع لمدارس طبية قائمة، والنقاد الذين يجذبون الأنظار إلى مجال يقتضى تجديداً إنما هم يقيناً جزء من عملية الابتكار. (طبيعى أن النقاد ليسوا جميعاً من دعاة الجديد. وبعضهم لا تتجاوز قدرته التعرف بلباقة على ما جاء، فلا يكاد يتحمس لشئ إلا بعد أن يتجاوز كثيراً مرحلة الخلق والابتكار).

ومن أخطر العقبات التي تعترض التفكير السليم الواضح بالنسبة للتجديد الفكرة الضيقة الأفق التي ترتسم في الأذهان عامة عن المبتكر، وتركيز الاهتمام على المبتكرات التكنولوجية وعلى مخترعى أجهزة جديدة معينة، من أمثال "جراهام بل" والتليفون، وماركوني واللاسلكي وإديسون والفونوغراف، وإخوان رأيت والطيارة، ولما كنا نبدأ من هذه

النظرة الضيقة، فإنه لا يسهل علينا أن نتقبل "جاكوب فوجر"، الأمير التاجر في عصر النهضة، كمبتكر، بالرغم من أنه جدير بهذا اللقب، والحق أن "جلوديو مونتفيردي" كان مبتكراً عندما عدل، وألف عدداً من التقاليد الموسيقية ليخلق الأوبرا الإيطالية، وكان بضعة من "الآباء الأوائل" من الرواد الأمريكيين مبتكرين ممتازين في فن السياسة، كذلك كانت "دوروثيا ديكس" مبتكرة ذات أثر ضخم في مجال الخدمة الاجتماعية.

ونميل إلى أن نتصور المبتكرين على أنهم أولئك الذين يأتون بطريقة جديدة في "صنع الأشياء" ومع ذلك فإن كثيراً من التغييرات البعيدة الأثر قد أطلق شرارتها الأولى أولئك الذين أتوا بطريقة جديدة في "التفكير في الأشياء" هكذا ينهى "ديك بلانك" و"إينشتاين" و"روذرفورد" عهد نيوتن، ويجيئون بعلم الطبيعة الحديث، وهكذا غير سقراط وزينو و"القديس أو جستين"، و"كوبر نيكوس" و"داروين" من مجرى التاريخ الفكرى ولا يسع المرء إذ يتأمل هذه الأسماء إلا أن يتبين تعدد الجوانب العجيب في مضمون الابتكار وأسلوبه.

ومن الخطأ أن نضع حداً فاصلاً قاطعاً بين أولئك الذين يأتون بطريقة جديدة في "صنع" شئ وأولئك الذين يأتون بطريقة جديدة في التفكير فيه، ويفعل الكثيرون الأمرين معاً، فكما علم "بقراط" معاصريه طريقة جديدة في ممارسة الطب علمهم طريقة جديدة في التفكير في الطب، طريقة رفعته عن مجال السحر والخزعبلات، وكما أدخل "لويس

سولليفان" طريقة جديدة في البناء أدخل طريقة جديدة في التفكير في البناء

لكننا لن ندرك عملية التجديد كامل الإدراك إذا قصرنا انتباهنا على أبرز الشخصيات التاريخية، ذلك أن كثيراً من التغييرات الكبرى في التاريخ كانت نتيجة ابتكارات صغيرة متتالية، لا نعرف أصحاب معظمها. ويحملنا شعورنا الدرامى (أو سطحيتنا) إلى البحث عن "الرجل الذي يرجع إليه الفضل كله ونهيل على رأسه أكاليل المجد عن عمل طويل متصل على أكبر جانب من التعقيد والتشعب".

وحرى بنا أن يرتفع مستوانا على هذا المفهوم غير الناضج، إن بعض مشاكلنا العسيرة الكبرى اليوم تتحدى العلاج بأى حل درامى منفرد، ولن نبرأ منها– إذا قدر لنا أن نفعل– إلا بسلسلة طويلة متكاملة من الابتكارات. ولعلنا نجد المثل في تجديد المناطق المزدحمة بالعواصم، فإن مهمة أعادة السيطرة على هذه المودة الزاحفة إلى حظيرة الإشراف المنطقى لساكنيها تقتضى انطلاقة طويلة في مجال الابتكار السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

الطاقة الخلاقة:ـ

عندما نتحدث عن الفرد كمصدر للتجديد تتوارد على الذهن الكلمة السحرية **Creativity** أو القدرة على الخلق وتحظى اليوم بشهرة

عجيبة حتى أصبحت أشبه بتعويذة ويحسبها البعض دراء نفسياً عجيباً، قوى المفعول عديم الألم، فيتهافتون على تذكرة منه.

ومن رذائلنا القومية أننا نفسد ونشوه أية كلمة أو فكرة تبدو ذات معنى مبتدع أو مناسبة جديدة، وهكذا أجهزنا على عبارة الطاقة الخلاقة، ولكن ينبغى ألا يحملنا هذا على إهمال الفكرة وراءها، وإن كنا نسلم بأن كثيراً من الاهتمام الحالى بالموضوع اهتمام سطحى أجوف، ومع ذلك فهو أكثر من مجرد بدعة أو صيحة جديدة، إنه جزء من مقاومة نامية لسطوة الأوضاع الشكلية الصارمة، وتقدير جديد للفردية إيذانا بإدراك إمكانيات الذهن الطليق المتحرر.

وينبغى ألا ننسى أن الكلمة وإن كانت ذائعة الشهرة، فإن نتائج الطاقة الخلاقة الحقة لا تحظى بهذا القدر من الإقبال الشعبى، فالأساليب الجديدة تهدد القديمة، وقد لا يطيقها المرتبطون بالقديم. ويعتبر اليوم "جاليليو" شخصية تاريخية شهيرة محبوبة، ونستشعر العقل والتحرر إذ نغضب لاضطهاده لتأييده "كوبرنيكوس"، لكن لو قدر له أن يظهر اليوم فن جديد ويؤيد أمراً يعارض أعمق معتقداتنا، لنهاوت مكانته ككتلة من أثقال الرصاص الساقطة من برج بيزا إن مودتنا نوقفها عادة على المبتكرين الذين ماتوا من أمد بعيد.

وحتى "باستير" الذي استمتع في حياته بتقدير لم يتهيأ لكثير غيره، كان طوال عمره هدفاً لهجوم مر ومعارضة عنيدة، وقد علم الرجل أن ذلك أمر لا مفر منه فقال:

وقال لى ذات يوم، عندما كنت مرشحاً لكرسى خال في أكاديمية العلوم، عضو من أقدم أصدقائي وأكثرهم وقاراً: صديقي.. إذا توقفوا عن الحديث عنك مستخفين بك في صحف معينة فاعلم أنك أخطأت السبيل.

وهذا هو السبب في أن المبتكرين يحتاجون دائماً إلى حماية، ثم هذا هو السبب في أن كفالة حرية الفكر والبحث أمر لابد منه لاستمرار التجديد.

ولا ينقسم البشر إلى فريقين، فريق خلاق وفريق غير خلاق، بل هناك درجات لهذه الموهبة وليس أندر من شخص يكون في مكانته بلوغ أقصى درجات الخلق، لكن في وسع الكثيرين أن يحققوا مستويات لا بأس بها من الطاقة الخلاقة في الظروف المواتية ، كما أن شطراً كبيراً من الناس في وسعه أن يبدى بعض القدرة الخلاقة بعض الوقت في بعض جوانب حياته.

ويتفق رجل الشارع والخبير المتخصص على أن الصفة التى نناقشها لا تقوم على الذكاء وحده، ويعرف كل منا شخصاً لامعاً واحداً على الأقل لا يفوق في روح الأصالة والابتكار آلة حاسبة عصرية. وقد أثبت البحث الحديث أن اختبارات الذكاء التقليدية لا أثر لها في التعرف على ذوى المواهب الخلاقة.

وبالمثل فإن الموهبة الخلاقة تتطلب سيطرة على الوسيلة التى يتم بها العمل، بل شيئاً أكثر من مجرد السيطرة، فالمبرزون من الفنانين أو الكتاب أو العلماء أو المهندسين قد سيطروا قبل كل شئ على فهمهم- سيطروا عليها بدرجة تكاد تدفع المرء إلى القول بأنه يمكن أن ينسوها، لكن ليس كل من سيطر على مهنة ذا شخصية خلاقة، فالرجل العادى، عالماً كان أو مؤلفاً أو فناناً أو موسيقياً، قد يكون بارعاً في مهنته من زوايا كثيرة دون أن يكون موهوباً حتماً بالأصالة والابتداع، ففى مجال العلم يجد المرء عدداً صغيراً نسبياً من المبتكرين على قمة الأكفاء الذين يؤدون عملاً روتينياً.

ويمكن أن تظهر القدرة الخلاقة في معظم أوجه النشاط الإنسان، وفي بعض مظاهر هذا النشاط- مثل بناء الطوب مثلاً- يكون الاحتمال محدوداً جداً بسبب طبيعة المهمة. ويمكن توقيع أعلى المستويات عندما لا يكون الأداء مقيداً تقييداً شديداً بطبيعة المهمة المراد أداؤها ، وفي تلك المجالات التي تمس عواطف الإنسان، وحكمه على الأمور وقدراته الرمزية ومداركه الجملية ونوازعه الروحية.

ولا تتجاوب العملية الخلاقة دائماً مع الجهود الواعية التي تبذل لإثارها أو السيطرة عليها ولا تتقدم بصورة منتظمة أو طبقاً لبرنامج موضوع، فهى تتعرج وتشرد ولا يمكن التنبؤ بسيرها إذ أنها هوائية متقلبة، وكما وصفها أحد العلماء بحق: "في وسعى أن أنظم ساعات العمل في معملى، لكن ليس بوسعى أن أنظم خط سير أحسن أنكارى"

وبدهى أنه في أداء أى عمل معقد لابد من إخضاع العملية في مرحلة ما للنظام والإشراف بصفة شعورية لكن دور العقل اللاشعورى في العمل الخلاق أمر جوهرى.

ترى هل من الممكن تنمية القدرة الخلاقة ؟ "دا سؤال لا تسهل الإجابة عنه. وتنحو الكتب الشائعة في الموضوع إلى القول بأن هذه الصفة مثل العضلة التي تفيد بالتمرين (ومعنى ذلك أنك أيضاً تستطيع أن تقوى الأجزاء الصحيحة) أو لعلها تتجه إلى أن القدرة الخلافة سر يمكن أن ينتقل ممن يعرفه إلى من لا يعرفه كالإمساك بمضرب الجولف أو وصفة طهو جيدة، لكن الباحثين يتعقدون أن هذه الصفة تتشكل في عهد الطفولة وتتوقف إلى حد كبير على الصلات القائمة بين أفراد الأسرة، ولا نعرف الشئ الكثير عن هذه التأثيرات المبكرة".

أما عن الكبار فليس من المؤكد ما إذا كان في الإمكان صنع شئ ما لكى نبث فيهم طاقة خلاقة ليست موجودة فيهم أصلاً، وإن كان من الممكن فعل الشئ الكثير لإطلاق أية إمكانيات كامنة، ويشهد كل من له هذه الصفة عامة بأن أنواعاً معينة من البيئة تقضى على نزعاتهم الخلاقة بينما تتيح أنواع أخرى إطلاق هذه الطاقة، والمجتمع المتهم بالتجديد الدائم يحرص على ان يكون بيئة صالحة لانطلاق الطاقة الخلاقة.

وعندما زار الإسكندر الأكبر المعلم الفيلسوف "دايوجين" سأله عما إذا كان ثمة ما يمكن أن يصنعه من أجله فأجاب: "حسبك ألا تقف في سبيلى"، ولعلنا نعرف يوماً ما كيف نرفع الطاقة الخلاقة لكن إلى أن

يجئ ذلك اليوم ؟ فإن خير ما يمكن أن نصنعه لذوى الطاقة الخلاقة رجالاً ونساء هو ألا نقف في سبيلهم.

وهناك أنواع كثيرة من ذوى الطاقة الخلاقة، فالكاتب الخلاق يمكن تميزه عن العالم الرياضى الخلاق، وكلاهما يمكن تمييزهما عن المهندس المعماري الخلاق، على أنه قد تبين من البحث أن ثمة خصالاً يتقاسمها كل هؤلاء ومعظم ذوى الآلة الرفيعة.

الطلاقة: كثيراً ما يجد قارئ دراسات الشخصية الخلاقة أكثر من إشارة لصفة يمكن وصفها "بالطلاقة **Openness**، وتعنى الطلاقة من ناحية تقبل الفرد للمناظر والأصوات والأحداث والأفكار التي يحتك بها. ومعظمنا يبرع في عزل العالم فلا يلحظ شيئاً إلا برؤيته خلال عين كليلة. أما الرجال والنساء ممن يستمتعون بموهبة الأصالة فيحتفظون بإحساس مرهف متجدد ووعى ناضج.

وطبيعى أن هذه الطلاقة مقصورة على مظاهر العالم الخارجى التي تبدو للفرد متسقة مع حياته الداخلية، فليس في وسع أحد أن يكون طليقاً متحرراً من التحيز إزاء كل تجارب الحياة بقضها وقضيضها. والفرد الخلاق يتهيأ له الإحساس المرهف ببعض نواحى الحياة بإهمال نواحى أخرى، ولما كانت النواحى التي يهملها دائماً على وجه الدقة تلك الأمور الروتينية التي تستحوذ على اهتمام سائر الناس وحبهم، فإنه كثيراً ما يوصم بالغرابة والشذوذ.

وأهم من تقبله للعالم الخارجى إنطلاقه وتحرره بالنسبة لحياته الداخلية فهو لا يكبت أو يرفض مواجهة عواطفه ووساوسه وأوهامه، أو بعبارة علمية أدق أن الشخص الخلاق كما يقول "ماكبنون" ورفاقه أقدر على التخلى عن السيطرة الشعورية ومواجهة الترعات والخيالات الناجمة عن المقومات البدائية اللاشعورية للشخصية دون ما خوف أو قلق"، ونصيبه أقل من غيره من القيود الداخلية أو الجوانب الثابتة من الخبرة، فهو فاهم نفسه متقبل لها.

وتتضح أهمية هذه الطلاقة إزاء تجارب الإنسان الشخصية الداخلية في حالة الكاتب الخلاق، ونتيجة لها تصبح في متناول يده ثروة كاملة من التجارب العاطفية والروحية والفكرية ولكن هذه الصفة يمكن أن يكون لها وزنها حتى في حالة أولئك الذين يقصرون اهتمامهم فيما يبدو على العالم الخارجى دون سواه، فالمهندس الخلاق يدع خيالاته الشاردة وأفكاره الجامحة تطفو إلى السطح، بينما ينحو الرجل غير الخلاق الترعة إلى كتبها وكبح جماحها.

الاستقلال: للشخص الخلاق قدرة على تحرير نفسه من شبكة الضغوط الاجتماعية التي تمسك بها ببينا، ولا يضيع وقتاً طويلاً متسائلاً: "ماذا عسى أن يقوله الناس؟". ولا يهمه ما يصنعه الناس ولا يؤثر على تفكيره، وهو قادر على مناقشة افتراضات يتقبلها سائر الناس ببساطة، أو كما يقول: "ج.ب جيلفورد" بحق: إنه موهوب خاصة في رؤية الهوة بين ما هو

كائن وما يمكن أن يكون، (وهذا يعنى بطبيعة الحال أنه قد أحرز قدراً معيناً من ؟؟؟؟ عما هو كائن).

ومن السهل أن يقع المرء فريسة للمبالغات الخالية في التحدث عن قدرة ذوى الأصالة على الانفصال عن غيرهم. ذلك أن من يرجع إليهم الفضل في الابتكارية الكبرى قد بنوا جهودهم دائماً على جهود الآخرين، واستمتعوا بكثير من ألوان التأييد والتشجيع والإقبال من جانب المجتمع، فهم وإن كانوا مستقلين إلا أنهم ليسوا منفصلين.

واستقلال الفرد الخلاق أو انفصاله يرتبط ارتباطاً وثيقاً بقدرته على المخاطرة وتعريض نفسه لاحتمال النقد من جانب زملائه، فهل يعنى هذا أنه غير متوائم مع ظروف بيئته؟. نعم، لكن ليس بالمعنى الشائع لهذه الكلمة حتماً. فمن النتائج الهامة التي أسفر عنها بحث حديث أن الفرد الخلاق يؤثر كقاعدة عامة التواؤم مع شئون الحياة اليومية المعتادة كأسلوب الكلام والملبس والمعاملات، كل ما هنالك أنه ليس مستعداً لكى يضيع طاقته في عدم الأخذ بالتفاهات، فيكرس استقلاله لما يهمه حقيقة- في المجال الذي يمارس فيه نشاطه الخلاق، وهذا يميزه بشكل واضح عن السطحيين الاستغراضيين الذين يرفضون مسايرة التقليد لمجرد اجتذاب الأنظار.

المرونة: وثمة صفة شائعة أخرى يمكن تسميتها بالمرونة- ولعلها تتضح فيما يسمونه "بمرح" الرجل ذى الأصالة والابتكار فنراه يتلاعب بفكرة ويختبر وجاهتها، وينظر إليها من مختلف الزوايا، ويناقش نفسه في

صحتها ثم يناقشها في عدم صحتها، وهو بعكس باقى الناس لا يتشبث في إصرار عقيم باتجاه واحد لمشكلة ما. ففى وسعه أن بغير نظرته ويقلب خطته ويستطيع أن يتخلى عن فهمه المبدئى لمسألة من المسائل ويعيد تحديد أبعادها.

ومن أهم عناصر مرونته قدرته على الاحتفاظ بقدر معين من الانفعال عما يستخدمه الناس من تقسيمات تقليدية وأوضاع تجريدية، وبقدر مماثل من الانفصال عن العادات الثابتة وروتين الناس من حوله. بل أنه قادر على ممارسة قدر معقول من الانفصال عن سابق اتجاهاته وعاداته الذهنية مما يؤثره خاصة. (ودرجنا على التحدث كثيراً عن قيود الحرية الناجمة عن ضغوط خارجية ونسينا القيود التى يفرضها المرء على نفسه بالإصرار واختلال الذهن والعادات الثابتة والأفكار الجامدة).

وترتبط بهذه المرونة صفة من صفات الشخص الخلاق سماها علماء النفس "التسامح إزاء الإبهام، فللفرد قدرة على احتمال الصراع الداخلى واستعداد لتأجيل الحكم، ولا تزعجه المسائل التى لا تحل أو الخلافات التي لا تُحسم، ولا يجد صعوبة في التعبير عن الجوانب المتعارضة في طبيعته في نفس الوقت، من تفكير شعورى ولا شعورى، وعقل وعاطفة، ونوازع خلقية وعلمية".

ويعلق بعض المراقبين على صفة "صبيانية" أو "بدائية" في الشخص الخلاق، فهو صبيانى بدائى بمعنى أنه لم يتأثر بالقيود الثقافية الجامدة التي تفقد معظمنا القدرة على الحركة... وفي المجال الذي يختاره لا يبدى شيئاً

من المعرفة الهشة والتقصر اللذين بيديهما الرجل الذي يزعم أنه علم بكل أمر وميزة هذه "السيولة" واضحة في أنها تتيح كل أنواع التوفيق وإعادة التوفيق بين تجارب الحياة بأقل قدر من الجمود".

القدرة على إيجاد التناسق في التجربة: يبدى ذو الأصالة العالية، إذ يطلق ذاته في مجال التجربة الغنى المتنوع، قدرة خارقة على إيجاد الترتيب والتناسق الذي تقوم عليه هذه التجربة المتنوعة، بل أقول قدرة خارقة على فرض الترتيب على التجارب، ولعل الشخص الخلاق، كما يقول "ماك كينون" لم يكن ليستطيع احتمال مثل هذا المزيج العجيب من الأفكار والتجارب المختلطة لولا ثقته العميقة بقدرته على الإتيان بنوع جديد من الترتيب والتناسق من ثنايا هذه الفوضى.

ولا تلقى هذه الناحية من العملية الخلاقة ما هى جديرة به من اهتمام، فركزنا غايتنا على أن المبتكر يحرر نفسه من الأساليب القديمة وأغفلنا تأكيد أنه يفعل ذلك ليصوغ أساليب جديدة. وإذا تأملنا هذا تراءت لنا صورة للشخص الخلاق مختلفة أساساً عن الصورة الخيالية العالقة بالأذهان. وقد دفعتنا الصورة التي رسمها الأدعياء ومعظم سابقيهم من البوهيميين في القرن التاسع عشر إلى الظن أن ذوى الأصالة والمبادأة على شئ من الشذوذ أو الخروج على القانون، لكن الرجل الخلاق الحق ليس خارجاً على القانون إنما هو صانع له، ففى كل عمل عظيم خلاق تكون الخطوة الأولى خلق الترتيب والتناسق من ثنايا الفوضى، والمجئ

بترابط جديد وربط بين أمور لم تكن تبدو مترابطة من قبل، ووضع إطار جامع متحرك صوب مفاهيم أوسع وأشمل.

وبوسعنا أن نعدد المزيد من الخصال التي نسبها الباحثون لى الشخص الخلاق، فقد لاحظ كافة المهتمين تقريباً حماساً ودفعاً ذاتياً كبيرين في الشخصية الخلاق، وإنهماكاً كاملاً في العمل. ووجدت "آن رو" في بحثها عن العلماء الموهبين أن من أبرز خصالهم الإقبال على العمل الشاق ساعات طويلة. والطاقة التي يودعونها عملهم ليست مركزة فحسب بل طويلة الأمد، ومعظم الأعمال الخلاقة الكبرى ثمرة سنوات من المملل الشاق.

ويعلق بحاثة آخرون على الثقة بالنفس وتأكيد الذات، أو كما يصورها أحدهم "الإحساس بالمصير" في الشخص الخلاق فيضع ثقته بقدرته على صنع ما يريد وما يحتاج إلى صنعه في مجال العمل الذي اختاره.

الثوري:ـ

قد يبدو لأول وهلة أن الثورى لا يفترق كثيراً عن الرجل الخلاق، لكنه في العادة لون آخر مختلف غاية الاختلاف، وبعض الثوريين، بحكم تركيب شخصيته، أبعد ما يكون عن قدرة الخلق: كأن تدفعه الظروف إلى القيام بدور الخصم للوضع القائم، فيكون مجرد أداة للتغيير، وإن كان

أكثر جموداً وبعداً عن الخلق والابتكار من القوى التي يعارضها وربما كان "ستالين" من هذا الطراز، وقد يستمتع ثوريون آخرون بمرحلة خلاقة في حياتهم ثم لا يلبثون أن يخلقوها وراءهم إذ تجف أرواحهم في وطيس المعركة، ثم هناك من يظل خلاقاً إلى النهاية.

ولا يكاد الراديكاليون (المتطرفون) يدخلون الصراع الذي كثيراً ما تقتضيه الظروف لتحقيق التغيير الاجتماعي حتى ينحوا إلى التجمد كأفراد وتنظيم أنفسهم في منظمات مذهبية صارمة لا تطيق التنوع بين صفوفها، وهذا البعد العنيف عن التسامع واحتمال التنوع هو السبب في الانشقاق الذي كثيراً ما يصيب الحركات الإصلاحية، فهى تنشق على نفسها لأنه ليس ثمة سبيل معقول للخلاف سوى الانقسام، ويصدق هذا سواء أكنا نتكلم عن المتطرفين اليساريين أم اليمنيين، إنه نتيجة التطرف لا نتيجة فلسفة وجودية.

ولهذه الأباب لا مفر من أن يكون الثورى على خلاف مع الناس "العاديين" في العالم، ولابد أن يشعر المسيحى الأمريكي العادى الدائب السعى إلى الكنائس، مهما بلغ من الإيمان،بمنتهى الضيق، ولا نقول الذعر، إذا اضطر إلى أن يستضيف بداره بعض المسيحيين السابقين من "السلف الصالح"، ولابد أن يترعج البروتستانتى الأمريكي اليوم لو اضطر إلى معاشرة بعض قادة حركة الإصلاح، ويحبذ أغلبنا نتائج حركة تحرير المرأة ويعجب بالنساء البارعات اللاتي قدمْا، لكن يجذب انتباهنا فيهن

أنهى على شيء من عدم الاتزان، وإلا فلماذا خضن المعركة بهذا العنف الرهيب؟.

والجواب هو أن من يحطم القيد الحديدى الذي تفرضه العادة لابد أن يكون ذا همة وحماس، قادراً على متابعة هدفه بتحمس ووحدة هدف. ولولا ذلك ما قدر له أن ينجح. ومن الحقائق المحزنة أنه عندما يجعل الثوريون أنفسهم هربوا ينقضون بهما على الكيان الاجتماعى كثيراً ما يحيطون أنفسهم بجمود شديد من صنع أنفسهم، وهكذا تنشأ المشكلة المألوفة، مشكلة ماذا نصنع بالثوريين عند انتهاء الثورة.

ويمكن أن نتخذ من الفن الحديث مثلاً لتغيير كبير في الأمزجة والاتجاهات والتقاليد مما لم يكن ليحدث بدون إيمان شديد وحماس عاطفي. وكانت قيود التقاليد "وما هو متوقع" في الفن من القوة بحيث كانت الطريقة الوحيدة لتحطيمها أن تحطم في قسوة وعنف، وكان من الضرورى أن يستشعر الرجال الذين حطموها حماساً شديداً للموضوع، ثم كان من الضرورى أن يكونوا مستعدين لمواجهة السخرية، وكان من الضرورى ألا يتوانوا في العمل من أجل آرائهم. وعندما تصبح مثل هذه الأمور ضرورية ، لا يدرى أحد ماذا تكون النهاية ؟ ولكلمة "الثورة" نغمة محببة إلى قلوب معظم الأحرار، ومن أسباب ذلك، الصورة التي ترسم في أذهانهم لثورة بديعة التنظيم يقوم عليها ثوريون متفانون، أما ما يحدث في الحياة حقيقة فإن الثورة التى ينتهى بها المرء نادراً ما تكون نفس الثورة التي بدأ بها، فقد يتمخض عن تركيز العواطف وصدمة المعركة

نتائج غير منتظرة، أما في هذه الحالة فقد نجحت الثورة في الفن الحديث نجاحاً باهراً في القضاء على جمود الفن التقليدي، كذلك غرست في مجال الرسم لمسة من الثورة والابتكار ظلت عالقة به إلى اليوم.

الفصل الخامس

عوائق التجديد

قيود حديدية من صنع الذهن:ـ

لكى نحقق التجديد لابد لنا أن نفهم ما يعترض سبيله من عقبات. والحق أن معظم الأمور التي تعوقه منبعها الذهن، لا أية عوامل خارجية.

وكما يعلم كل خبير في الإدارة، فإنه من السبل نسبياً تحديد الجوانب التى تحتاج إلى تجديد في أية مؤسسة، أما ما يصعب علاجه فهو العادات والاتجاهات التي دفعت بالمؤسسة إلى الهاوية بادئ ذى بدء، وبالمثل فإن العالم الاقتصادى يعلم أنه بعد أن يشخص المشاكل الاقتصادية في مجتمع من المجتمعات النامية لابد له أن يعالج أمر العادات والاتجاهات والمعتقدات التي تعترض سبيل التنمية الاقتصادية.

وعندما نتحدث عن بث الحياة من جديد في مجتمع أو مؤسسة ننحو إلى قصر اهتمامنا على إيجاد أفكار جديدة، لكن ليس ثمة أزمة عادة في الأفكار الجديدة، إنما المشكلة هي أن تجد لها آذاناً صاغية، ويعنى هذا التصدى للجمود والتواكل والرضا بالرضع القائم. ويقيم المسن المتهالك مجتمعاً كان أو مؤسسة وسائل دفاع ضد الأفكار الجديدة– يسميها الشاعر ويليام بليك بتعبيره الحى: "قيود حديدية يصوغها الذهن".

وتبلغ وسائل دفاع المجتمع ضد التغيير من القوة والعناد ما يقتضى أحياناً لوناً من "العلاج بالصدمات" لتحقيق التجديد. وكثيراً ما تؤجل أمة إجراء التغييرات الاجتماعية الهامة إمعاناً في الحرص على القديم إلى أن تضطرها الحرب أو الأزمات الاقتصادية إلى تغيير موقفها، وكم من مؤسسة لابد من أن تتعرض للإفلاس حتى تجرى إصلاحات ضرورية بداهة ؟

ومن الحقائق المرة أن النكبات كثيراً ما تتمخض عنها إعادة توليد الطاقات بشكل ملحوظ . فستأتينا بربارا التي تعتبر من أجمل مدن ساحل الباسفيك تدين بكثير من بهائها إلى زلزال عام **1925** الذي دمرها تدميراً كاملاً تقريباً، فقد هيأ الخراب الشامل للقائمين على المدينة الفرصة الثمينة لإعادة البناء في ذكاء، ومن التعليقات الأليمة على حالة الفوضى في المدن الحديثة أنه لم يترل بها من المصائب ما يخلق وراءه لمسة من الجمال.

وكما ذكرناه في الفصل الثاني فإنه كثيراً ما يتطلب الأمر قوة متفجرة مشابهة لتحقيق التغييرات الجوهرية في معتقدات الأفراد واتجاهاتهم وعاداتهم وأنظمة حياتهم إذا ما أجدبت ودب فيها الجفاف.

فكيف يطور المجتمع مثل هذه المقاومة العنيدة للابتكار؟، والأمر لا يختلف في بعض النواحى عن عملية ضيق الأفق التي تصيب الأفراد مما ناقشناه من قبل، فالتنظيم الجديد لا يخضع لأساليب محكمة أو لخطوط تنظيمية واضحة أو سياسات موحدة، بل إنه مستعد لتجربة مختلف

الطرق لحل مشاكله، دون أن يتقيد بعبء التقليد، بل يقدم حيث يخشى الملائكة الإقدام.

وعندما تسلك المنظمة سبيل النضوج تطور أساليب مستقرة لتصريف الأمور وتصبح أكثر نظاماً وكفاءة وترتيباً، لكنها تصبح أيضاً أقل مرونة وأقل ابتكاراً وأقل استعداداً لتلقى نظرة جديدة على تجربة كل يوم، وتتبلور أساليبها الروتينية الثابتة في صورة قواعد مدروسة وأحكام مكتوبة، فإذا جاءت المرحلة النهائية من شيخوخة التنظيم كانت ثمة قاعدة أو سابقة لكل شئ، وقد قال أحدهم: إن آخر عمل تقوم به مؤسسة بسبيل الموت أن تصدر طبعة جديدة مكبرة من لائحة تنظيم العمل.

واللوائح أو القواعد المكتوبة أقل المشاكل شأناً، وأبعث منها على الحيرة "سترة المجاذيب" أو سجن القواعد غير المكتوبة التي ينوء بها الفرد. وقد تمثل بعضها اتجاهات وقيماً تعتبر من أثمن ما تمتلكه المنظمة من أرصدة، مثل مستويات التفوق، واحترام الفرد والأهداف المشتركة والروح المعنوية العالية. لكن الأساليب التقليدية في أية مؤسسة ليست والروح المعنوية العالية . ليست كلها بناءة بهذه الصورة، ففى معظم المجتمعات والمؤسسات تنمو الحشائش الضارة من العادات والسوابق، ويصبح هناك أسلوب مقبول لفعل كل شئ، وتحرم التجارب المتطرفة والخروج الراديكالى على أساليب الماضى فيقول الموظف القديم الخبرة: "ما عليك إلا أن تفهم كيف تصرف أمورنا هنا ؟، ويعنى بذلك أن

الطريقة التي تصرف بها الأمور طريقة سليمة ومحترمة ولا يوجد أفضل منها، ويقول سير هنرى بسمار مخترع فرن بسمار لصنع الحديد:

"كانت لى ميزة عظيمة على كثير غيرى ممن يعالجون المشكلة قوامها أنه لم تكن لدى أية أفكار ثابتة مستفاة من الممارسة المستفرة الطويلة، من شأنها أن تسيطر وتؤثر على ذهنى، كما أننى لم أكن ضحية الاعتقاد السائد بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان".

وهكذا تمارس العادة والمثل المستقرة ضغطاً ضاراً على العقول الخلاقة بصورة تجعل التطورات الجديدة تنشأ دائماً خارج نطاق العمل المحترم. فلم يحدث الخروج على الفن التقليدي في نطاق الأكاديمية، ولم تنبثق موسيقى الجاز من قلب الموسيقى العالمية المحترمة، ولم ينبثق نظام الكليات ذات منح الأراضى، وهو ابتكار تعليمي على أكبر جانب من الأهمية، من دوائر التعليم العالى المحترمة القائمة إذ ذاك- بل كانت انطلاقة من خارج نطاق تلك الدوائر الميجلة، وكان نظام الفنادق الحديثة الكبرى، ويمثل تطوراً ضخماً في هذا الجيل، موضع سخرية كبار المشتغلين بشئون الفنادق.

ولعله من المناسب في هذا المجال أن نعيد دراسة تعليقات فردريك جاكسون تيرنر على تجربة رواد الحدود إذ قال:

"تتحظم عند الحدود لحظة من الزمن قيود العادة وينتصر الانطلاق، والواقع أن الحدود أتاحت ميادين جديدة للفرص المواتية،

وهيأت أبواباً للنجاة من أسر الماضى. وصاحبت الحدود جدة ونضارة وثقة وسخرية من المجتمع القديم ونفاد صبر من قيوده وأفكاره وعدم مبالاة بما يلقنه من دروس وعبر. وكما كان البحر الأبيض المتوسط بالنسبة للإغريق محطماً لقيد العادة ومهيئاً لتجارب جديدة وباعثاً على أنشطة جديدة، كانت الحدود الدائمة التغيير مثل ذلك أو أكثر من ذلك بالنسبة الولايات المتحدة".

إن المجتمع الناضج ينبغى أن يبذل جهداً خاصاً لمكافأة مبتكريه، ذلك لأن هذا النضج بالذات يثبط من الابتكار. وحيثما كانت هناك طريقة مستقرة لأداء كل عمل، شعر الناس أن كل عمل رائد قد تم وأن كل شئ مثير قد جرب، وبالرغم من أن الحاجة إلى الابتكار ما زالت قائمة (أو لعلها أكبر من ذى قبل) فهى أبعد ما تكون وضوحاً أمام الأذهان ولا يمكن رؤية التحدى بسهولة، والأمر على عكس ذلك في حالة الحدود حيث كانت الحاجة درامية مثيرة يفهمها الجميع. فإذا كانت لدى الفرد ذرة من القدة على الابتداع أو الابتكار ساعد الموقف على إبرازها.

وقد بلغ الأدب الإنجليزي على يد نشوسر وشيكسبير قمم الخلق والابتكار بصورة تبز ما تم من ذلك طوال القرون التالية، ويسمع المرء أحياناً من يتعجب من إتمام مثل هذا العمل الخارق مبكراً في تاريخه الطويل، وقد بدأنا نفهم أن تلك الانطلاقات الخلاقة قد نشأت، جزئياً على الأقل، بسبب هذا التبكير لا بالرغم منه.

ويتميز الشباب بنفاد الصبر إزاء الإجراءات المرسومة رسماً دقيقاً، فالتنظيم الشاب (أو الشخص الشاب) يريد "بلوغ الهدف" والشئ الهام هو أداء العمل دون أن يشغل المرء باله حول الطريقة التي يؤدى بها العمل. وأهم ما فى الموضوع هو تلبية الحاجة الماسة بصورة مباشرة على قدر الإمكان دون ما زخرف.

لكن الأهداف تتم بوسيلة ما، "ولابد أن يكتشف رجل العمل مهما بلغ من العقوبة والارتجال أن بعض طرق تحقيق الهدف أبلغ أثراً من غيرها. والاهتمام بكيفية أداء العمل هو جوهر كل براعة وفن عظيم، وهو أساس كل أسلوب في العمل الإنساني، وبدونه لا يتسنى لنا أن يبلغ الإنسان القمة فيما ينجزه من عمل.

لكن العجيب أن هذا الاهتمام "بكيفية أداء العمل" هو في نفس الوقت من العلل التي تموت بسببها المجتمعات، ذلك أن الانشغال بالأسلوب والوسيلة وطريقة الأداء يسيطر شيئاً فشيئاً سيطرة مستترة على عملية السعي إلى الهدف برمتها، فتصبح كيفية أداء العمل "أكثر أهمية من أداء العمل".

وتطغى الوسيلة على الهدف وينتصر الشكل والمظهر على الروح والجوهر، ويتوج الأسلوب ويصبح الناس أسرى الإجراءات وتصبح النظم التي وضعت أساساً لتحقيق هدف معين عقبات في طريق ذلك الهدف.

والاهتمام بكيفية أداء العمل وضع سليم لازم، أما أنه كثيراً ما يؤدى إلى عبادة الأسلوب عبادة جوفاء فإنه مجرد خطر من أخطار الحياة التي لا مفر من مجابهتها، وكل نشاط بشرى، مهما كان نبيلاً أو بناء أو صحياً سليماً، إنما ينطوى على لون من المخاطرة. وتحمل زهور الكفاءة من بذور الجودة مثلما تحمل زهور الفضيلة من بذور الرضا والتواكل، وقد قال جون بونيان: "إن ثمة طريقاً يؤدى إلى جهنم من أبواب الجنة ذاتها".

ولا يحسبن المرء أن هذا مرض من أمراض الأنظمة البيروقراطية وحدها، ذلك أنه عن طريق عملية لا تختلف عن ذلك، كثيراً ما يصبح الفنانون أسرى الأسلوب الذي ابتدعوه، وتصبح الحضارات أسيرة لأعظم منجزاتها، وكما حدث لآخاب، يتحطمون في النهاية من جراء الشئ الذي يسيطر على أذهانهم.

وكلما كثرت القواعد والعبادات إزدادت أهمية ملاءمة مسلك الفرد، ولا يحظى بالمجد ذو الحوافز والهمة العالية أو من "يحرص على أداء العمل" بل ذو المعرفة الوطيدة بالقواعد والأساليب التقليدية والإحساس المرهف بطريقة التصرف في ضوء تلك القواعد والتقاليد، أما ما يؤديه حقيقة من عمل فتتضاءل أهميته، وفي هذه المرحلة يفقد الأفراد ثقتهم بقدرتهم على أداء وظائفهم دون عكازات تتمثل في قواعد وأحكام مستقرة ثابتة.

ومن نتائج تضخم القواعد والعادات والإجراءات اختناق الطاقة؛ أو بعبارة أدق، تشتيتها بتوزيعها في متاهات الالتزام والجمود ، وهكذا يقضى استمرار سيطرة القواعد على الطاقة ويحطم كل حماس ومبادأة وقدرة على الخلق والابتكار، وفي حالة نشاط الحدود كما في حالة أى نظام يافع، حيث لا وجود لهذه القوى المثبطة، تنطلق طاقة متحررة عجيبة– طاقة من التفرغ وقدرة على التطرف، طاقة لا تكبلها الإجراءات المعقدة ولا يبددها الروتين.

أمامنا إذن مفارقة عجيبة: فقد يكون للمجتمع أو للتنظيم الذى دبت فيه الشيخوخة ثقة فائقة بأمور الإجراءات والطرق والأساليب، إنما تساوره شكوك قوية في قدرته على الفوز، يقابل ذلك أن المجتمع أو التنظيم الشاب العديم الخبرة الممتلئ طاقة لا يخضع لقيد، قد يكون على ثقة كبيرة بقوته وقدرته وجدارته بالفوز، إنما يساوره شعور بالنق والتخلف في الإجراءات والتصرفات والأساليب وينحو أبناء الجديد القوى الذي يطرد القديم الهرم إلى الظهور بمظهر التخلف إزاء أسلوب وبراعة الثقافة القديمة الدسمة المتغلغلة التي يحلون محلها.

ومن الخطط المألوفة لدى أولئك الذين يحاولون النجاة من تيارات التغيير الجارفة أن يتشبثوا بالقيم الخلفية العالية، متعللين بأن الأسلوب القديم يرتبط ارتباطاً وثيقاً باعتبارات خلقية روحية يتهددها التغيير بالخطر. وعندما جابهت روسيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تفوق أوروبا الغربية التكنولوجي، اضطرت إلى التحدث عن الروح

الروسية، تماماً كما يؤكد بعض كتاب الهند اليوم أن التفوق التكنولوجي الغربى يسمو عليه العمق الروحى الهندى، إن الجديد لا مفر من أن يبدو عادة أمراً وحشياً بالنسبة للقديم، ولسوف يبدو الزمن القادم دائماً متخلفاً في الروح والقيم العميقة عن الزمن المحتضر، والمجتمع الذى سيطر على فن التجديد المستمر لن يدعْ مثل هذه التراعات أن نضلع عن سبيل الحكم الصائب، ولن يقبل التحيز لشئ لمجرد أنه ظل قائماً زمناً طويلاً.

ولقد قيل إن في حياة المجتمع (أو المنظمة أو الحركة) مرحلة يزدهر فيها المبتكرون والعقول الخلاقة، ومرحلة يزدهر فيها الخبراء والنقاد، فهل صحيح أن فن الخبرة يبلغ ذروته في الطريق إلى الاضمحلال؟ إن المسألة موضع جدل كبير، ويحسن أن نقف عندها لحظة. فالعقول الخلاقة يندر أن تكون مرتبة منسقة ويحدث عادة أن تبالغ الحركات الجديدة الديناميكية في "صنع الأمور" ولا تجد ترحاباً في تلك المرحلة التى تعتبر فيها القيم الرفيعة مزاجاً منحرفاً وحكماً متحيزاً، ولابد من الاعتراف بأن التعليم في أعلى تطوره ينمو بطبيعته هذا المنحى الأخير. وهكذا ينشأ الوضع الساخر الذي يهيئ فيه الآباء، الذين يكنون أعظم التقدير للطاقة الخلاقة لأبنائهم، تعليماً يقضى على هذه الطاقة في مهدها إذ يصنع منهم جيلاً ناشئاً من الخبراء.

ومن صيحات الحنين إلى الماضى المألوفة القول بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان ("والأيان الخوالي" و"العصر الذهبي"، وهذا ولا شك لون من الثورة على كبت الحيوية بالتنظيم ووطأة العادة وتعقيدات الحضارة

الناضجة، إن الناس يشتاقون إلى زمان لم تكن فيه النزعة الفطرية مكبلة بقيود القواعد مبعثرة في تمسكها بالإجراءات الطويلة المرسومة، ويحنون إلى زمان لم يكن فيه للأوضاع المصطنعة وزن، وكانت الكلمة العليا للبساطة والبعد عن التعقيد، يحنون إلى زمن كان الماضى فيه أخف وطأة كما فعل هوثورن بعد أن زال المتحف البريطاني إذ قال:

وتجولت من قاعة إلى قاعة بقلب مثقل موجع متمنياً (سامحنى الله!) أن تتحطم إرباً تماثيل المرمل وطنافس البارثنون جميعاً... إن الحاضر هو بعبء الماضى أكثر كثيراً مما ينبغى، إن فترة حياتنا على الأرض لا تتسع لتقدير ما هو نابض دافئ بالحياة حتى ما كان منه شديد القرب منا، ومع ذلك تكدس كل تلك الجماجم والأشلاء التي فاضت أرواحها من زمن بعيد إلى غير عودة، ولست أدرى كيف يمكن لأجيال المستقبل أن تشق طريقها إلى الأمام وهي تنوء بعبئها من الموتى، السابقين منهم واللاحقين بهم على الدوام ؟

لكن الحنين إلى القديم وبساطة الماضى كانت على الدوام مبعث أوهام مضللة خطيرة عن المجتمع والتاريخ. وكم من مجتمع قديم كان له كيان من القواعد والعادات أشد جموداً مما يتصوره أغلب أبناء العصر ؟ من ذلك أن الحياة في مستعمرة خليج ما ساتشوستس في أواخر القرن السابع عشر شهدت من قيود الأحكام والسوابق الصارمة ما لا يخطر ببال معظم الأمريكيين اليوم.

وينبغى أن يكون هذا مشجعاً لنا، فهو يوحى بأن المجتمعات التى تجددت قد تحطم جمودها ذات يوم، وأن مجتمعاً كمجتمعنا لا يتعرض حتماً لشيخوخة لا مفر منها، والواقع أن هناك من الأدلة ما يكفى لإثبات أن ثمة أجهزة إصلاحية في المجتمع السليم البنيان. فسواء تعلق الأمر بالفن أو الأخلاق أو الكيان الاجتماعى، فإن أى اتجاه إلى تعقيد الأمور من شأنه أن يحطم نفسه بنفسه ويسعى الناس من جديد إلى التماس علاقة مباشرة بسيطة بالحياة وببعضهم بعضاً.

المصالح المكتسبة:ـ

من أشهر العمليات التى تقلل من المرونة والإقبال على المخاطرة لدى الأفراد والمؤسسات التغييرات الناجمة عن جمع المال وتكديس الممتلكات، فاشتغالنا بالحفاظ على تملك، يجعلنا أقل إقبالاً عن المجازفة ممن يشق حياته متخففاً من هذا العبء، بمحض اختياره أو بحكم الضرورة، فنحن جميعاً إلى حد ما "ملك لما تملك"، أو كما يعبر "وليم جيمس" عن الفكرة بقوله: "إن الحياة القائمة على أساس السعى إلى الامتلاك أقل تحرراً من الحياة على أساس السعى إلى العمل أو البقاء".

ولا يعنى الامتلاك مجرد جمع الثورة، بل يعنى كذلك كل أنواع الالتزامات التي نلتزم بها، فالفرد يرتبط بالديون والأقساط وما إليها، وترتبط المؤسسة بنفقات باهظة على القوة العاملة والالتزامات الطويلة

الأجل ، ويرتبط النظام بنظام مادى مرتب لا يسهل تعديله أو التخلص منه.

بل إن هذا الجمع والتحصيل الذى يثقل كاهل الإنسان قد يكون النوع غير المادة، كالسمعة أو الوضع الاجتماعي، فقد تتجنب مؤسسة المغامرات التجريبية خشية الإضرار بما تشتهر به سلامة وضعها، وكم من أستاذ نابه سمح لموهبته الخلاقة اليانعة بأن تذوى بسبب الالتزام المتزايد بما سبق له أن أعلن من مذاهب ؟ وكم من خبير متخصص يخشى فقدان سمعته إذا غامر بارتياد ما يتجاوز المجال الذي أثبت فيه تفوقه ؟ والواقع أن هذا الخوف هو أكبر عائق أمام الاتساع الفكرى العرضى في العالم الأكاديمي.

ولما كان أحد لا يبغى العودة إلى "عدم امتلاك شئ حتى لا يفقده" فإنه مما يريح النفس أن يلحظ المرء أنه ليس بين هذه النتائج ما لا يمكن تجنبه، فالمسألة ليست مسألة ممتلكات بقدر ما هى مسألة اتجاه المرء نحوها، فإذا التزم الأثرياء (أفراداً ومجتمعات) بالإبقاء على مواردهم دون تحفظ كانت الثروة قوة قاضية. أما إذا اعتبروا مواردهم أداة توفر لهم متعة التجربة الخلاقة إزاء بيئتهم، كانت الثروة نعمة وبركة، فالأفراد والمجتمعات الذين يعيشون عيشة الكفاف لا يستطيعون عادة أن يقدموا على المغامرة التي يقتضيها العمل المجدد المبتكر.

وفي حالة المؤسسة، يتوقف الكثير على طبيعة الموارد والالتزامات ويعرف كل مدير لعمل كبير الفرق بين أنواع الالتزام التنظيمي الذي

يقيد حرية العمل وبين الأنواع التى قميئ المرونة وسهولة المستمر، ولا يمكن أن تكون الموارد المخصصة لهدف التجديد المستمر عبثاً بحال من الأحوال.

وتشكل المصالح المكتسبة مشكلة أخرى للمجتمع الذي دبت في أوصاله الشيخوخة . وقد إنصرف معنى المصالح المكتسبة إلى الثروة والنفوذ، لكن كما يعلم كل خبير بشئون المؤسسات، يمكن أن تكون مصالح العاملين في قوة مصالح كبار المديرين، فالمصالح المكتسبة يمكن أن تتواجد حيثما يريد المرء قميصاً يقى بدنه أو حقوقاً وامتيازات يتردد في المغامرة بفقدها، وفي أية مؤسسة يستقر كثير من الأساليب المرعية في أداء العمل لا بالمنطق أو حتى بالعادة، بل بقوة اعتبارٍ كبيراً واحد: هو أن تغييرها من شأنه أن يتهدد بالخطر حقوق أو مزايا أو امتيازات أشخاص معينين، قد يكون منهم المدير، وقد يكون منهم رجل الصيانة.

وبارتباط الأفراد بالمصالح المكتسبة تتجمد المؤسسة ذاتها وليست المؤسسات الديمقراطية معصومة من هذه النتيجة بحال من الأحوال ، بل إنها كلما زادت ديمقراطية، انعكست المصالح المكتسبة لأعضائها بصورة حية على سياستها ، وهكذا فإن المؤسسة الديمقراطية الراسخة قد تنحو خاصة إلى مقاومة التغيير.

وفي الكليات والجامعات يتأثر كثير من القواعد والأنظمة المتعلقة بالبرامج المطلوبة ، التي تجد سنداً قوياً من الحجج الفكرية الرفيعة، تتأثر في نفس الوقت بمصالح أعداء الكلية المرتبطين بهذه البرامج. وتضم قوانين

المبانى في معظم المجتمعات نصوصاً أدخلت لحماية الوضع الخاص لهذا العنصر أو ذاك من عناصر المجتمع- كشركات المبانى والعقارات وموارد التموين وما إليها، وفي لوائح الحركات العمالية تعتبر المزايا المختلفة وحقوق الأقدمية ونظام "المحل المغلق" كلها تدابير تتبلور فيها المصالح المكتسبة.

ولا أقصد هنا أن أدلل على وجود هذه المصالح المكتسبة أكثر ما قيل في ذلك إنما أقصد أن أبين أنها من بين العوامل الشديدة القوية في زحف الجمود وتحطيم القدرة على التغيير. وهذه هى الأمراض التي نمت بسببها المؤسسات والمجتمعات.

الفصل السادس

دكتاتورية دون دكتاتور

دكتاتورية الشكل:-

لموجات التغيير التى تدفع المجتمع إلى الحلول الجديدة، أو المصائب الجديدة أثر أعمق من أحداث اليوم المثمرة . فإزاء موج الحركات الكبيرة لا تعدو الاتجاهات التي نلحظها في أعمارنا القصيرة أن تكون تيارات سطحية ولا يعدو صخب الجرائد الصباحية أن يكون مجرد فقاعات.

وهو اتجاه لابد أن نعرض له هنا لأنه يهدد حرية الفرد وسلامته وتتوقف على الفرد قدرة الجماعة على التجديد المستمر في نهاية المطاف، فهو مهد التغيير، وهو المبتكر المجدد، ناقد الأساليب القديمة ومخطط الطرق الجديدة. وقد كتب جون ستيوارت ميل يقول: "إن دولة تجعل من رجالها أقزاماً... لا تلبث أن تجد أنه بالرجال الصغار لا يمكن أن ينجز شئ كبير" وحسبنا أن نضيف هنا: ولا يمكن أن ينجز شئ جديد، شئ خلاق يبعث الحياة والنشاط.

وما زال الجهل والمرض وسوء التغذية والكبت السياسى والضيق الاقتصادى من أشد العوامل التى تعوق نمو الفرد، لكن كل مفكر تشغل

باله اليوم القيود الجديدة الغامضة التى يفرضها التنظيم العصرى الواسع النطاق على الفرد، ويخشى أننا قد نتغلب على العلل والشرور القديمة لنجد أنفسنا في قبضة دكتاتورية جديدة منسقة.

ولا جدوى من الأمل في أن يتحول من تلقاء نفسه الاتجاه إلى التنظيم الاجتماعى الشامل المتشابك، فالمجتمع الحديث يتسم وينبغى أن يتسم بالتنظيم الكبير المركب. ولا خيار لنا في الموضوع، فلابد أن نعالج على خير وجه نستطيع أمر الضغوط التى يفرضها التنظيم العصرى الواسع النطاق على الفرد، وكانت هذه الضغوط وما زالت موضوعاً أثيراً لنقاد المجتمع. وليست ثمة ضرورة لوصفها هنا، لكن لعله من المفيد أن نوضح بعض ما أحاط الموضوع من لبس وخلط.

فمن الثغرات الواضحة فيما يكتب اليوم عن الموضوع، الاتجاه إلى البحث عن شرير مسئول عما حدث، ومن السمات البارزة لسوء حال الفرد اليوم أنه ليس هناك شرير يقع عليه اللوم. فليست المشكلة مسألة طبقة اجتماعية تسيطر على طبقة أخرى، أو مسألة اضطهاد قوم يؤمنون بمذهب آخر، ولا مسألة طاغية يفرض سطوته على الفرد، ولا حتى ذلك الغول العجوز المنهك "ماديسون آفينيو"، ولا ذلك المارد المالى الجديد– المؤسسة– فإن ما يجثم على صدر الفرد حقيقة إنما هو طبيعة المجتمع العصرى ذاتها.

ومع ذلك يظل البحث عن شرير قائماً على قدم وساق، عله يسد للباحثين حاجة عاطفية..

وهناك طغاة في الصورة بطبيعة الحال، ولعلنا نفيد شيئاً بملاحظتهم عن كثب. وما برحنا نقصر فهمنا للدكتاتور على أنه الطاغية الذي يكبت رغبات الشعب. لكن الطغيان المباشر دون مبالاة بمظاهر القبول الشعبى يعتبر اليوم أقدم الأساليب السياسية طرازاً، فالدكتاتور العصرى الحق يبلغ أهدافه "عن طريق" الشعب لا بالرغم منهم، فهو يعتلى قمة طموحهم إلى القوة والمجد ويحرك آمالهم ومخاوفهم فيدعى إلى كرسى الرئاسة بين الهتاف والتصفيق ثم يقيم بعدئذ، بموافقة الشعب، نفس جهاز السيطرة الذى كان على الدكتاتور القديم أن يقيمه لكبته وهذه عملية يمكن ملاحظتها اليوم على نطاق الأمم والمجتمعات واتحادات العمال.

وإذا فهمنا كيف يمكن أن تحدث هذه الأمور ؟كنا في وضع يتيح لنا أن ندرك أن الناس يمكن أن تقيم دكتاتورياتها، وإذا كان لابد من كبت حرية المرء فلعله مما يريحه أن يجد هذا الكبت بصورة ديمقراطية. لكن فقدان الحرية واحد على أى حال كان.

وبعد، فإن كثيراً من الأخطاء التي تهدد حرية الفرد لا تنجم كما رأينا، ولو من بعيد، عن صلات التسلط والإخضاع، أو عن أى ظرف سياسى، بل تنجم عن العادات والتقاليد ومفاهيم الناس عن "الإجراء السليم" فكل ذلك يمكن أن يكون فى قسوة أية دكتاتورية.

كذلك من الأخطاء الشائعة افتراض أن الضغط على الفرد يمكن فهمه على أنه موضوع مناقشة بين الأحرار والمحافظين أو مقارنة بين الأعمال الحكومية والأعمال الخاصة. وهذا خطأ مبين فقد كان بناة

المؤسسة الكبيرة العصرية رجالاً محافظين سياسياً من ذوى النزعة الفردية الصارمة، وهي مثل صادق للتنظيم الاجتماعى الواسع النطاق الذى يفرض مشاكل جديدة على الفرد. كذلك فإن ذوى النزعة المتحررة ممن يعتبرون أنفسهم من أصدقاء الحرية المخلصين كانوا في طليعة الاتجاه إلى فكرة "الحكومة الكبيرة" و"العمل الكبير"، وكلاهما يلقى على الفرد مشاكل بعيدة الغور.

والحق أنه لا المحافظون ولا الأحرار مسئولون عن الأخطار التى تواجه الفرد في المجتمع العصرى، كذلك لا تقع المسئولية على "الاشتراكية الزاحفة" "أو المجتمع المسيطر"، فقد تطور المجتمع الجماهيري العصرى في مختلف الأجواء المذهبية، ولا تنتسب أساليب التنظيم الواسع النطاق إلى أى فريق مذهبى فقد تطورت المراكز الحضرية الضخمة التي يتميز بها المجتمع الجماهيري بنفس السرعة في اليابان والهند وروسيا والولايات المتحدة.

كذلك فإن من الأخطاء الشائعة ما يقوله البعض من أن الجوانب "المتجردة من الإنسانية" في التنظيم الاجتماعى الحديث إنما هى خطأ العلم والتكنولوجيا. ولهذه النظرة جذور عاطفية عميقة ويست ثمة حكمة فى مجادلة المتشبثين بها، فهم يؤثرون أن يظلوا على حمقهم.

لكن الحقيقة هى أن العمال في أحلك لحظات التصنيع الحديث لم يكونوا أشد بؤساً من العبيد الذين استخدموا من قديم الزمن في أعمال السخرة. وليست التكنولوجيا الحديثة هى سبب المتاعب، إنما على أساس

المشكلة اتجاه ذهنى لم يختف قط من العالم حقيقة أو لعله لم يتضاءل كثيراً منذ أيام الفراعنة، وهي التضحية بالقيم الإنسانية من أجل أهداف أخرى.

فالتكنولوجيا الحديثة لا يتحتم أن تحطم القيم الخلقية والروحية والاجتماعية، لكنها لابد أن تفعل ذلك ما لم يكن الأفراد الذين يتولون أمر التكنولوجيا قد وطدوا العزم على الحفاظ على هذه القيم.

وليس الظلم الواقع في المجتمع الجماهيري مسألة رجل يضع قدمه على عنق رجل آخر، إنه استبدال الشكل والقاعدة، فمجتمع الجماهير يبحث عن مسمى عام، لكن الأعداد الضخمة تجعل من المستحيل الاهتمام بشخصية الفرد، وتتطلب خدمة السوق الجماهيرية نمطية أو توحيداً للمعايير، وتجانساً في الثقافة الشعبية، بل كذلك تخطيط الحملات السياسية بمعرفة خبراء التسويق.

وتؤدى الاحتياجات الماسة لمجتمع ذى تنظيم رفيع إلى تطوير أساليب إدارية قوية بارعة فى طرق الاتصال ونقل المعلومات وحساب التكاليف وشئون الأفراد والعلاقات العامة، يندر أن يضعها رجال يضمرون أهدافاً استبدادية متعمدة، ولكن هذه الأساليب، في يد رجال لا يحسون بحاجات الفرد، تؤدى دائماً إلى إخضاع البشر لعملية آلية.

وكثيراً ما يساء فهم الضغوط التى تؤدى إلى التزام الناس بأوضاع متطابقة. فالعمليات الدقيقة المتشابكة في مجتمع حديث مركب تقتضى

درجة عالية من القدرة على التنبؤ بمسلك الفرد ويلتزم الفرد بالأوضاع، إذ يبدو له أن ذلك هو الطريق السليم المعقول للحفاظ على حسن سير التنظيم وتعترض هذا السبيل المعتقدات المتطرفة والآراء المناهضة للشعب والأساليب الفريدة فى سلوك الناس، لذا يحرص القائمون على شئون الأفراد دائماً على البحث عن الرجل "الملام" ويقول الآباء في توجيه أبنائهم: "أنت تريدا أن تكون محبوبا بين الناس، أليس كذلك؟ إذن عليك أن تفعل كذا وكذا... ويشجع المديرون المثاليون الفرد على أن يصوغ نفسه حتى يصبح أشبه بعملة سهلة التداول في أية سوق، وقد يصر الكاتب من أمثال كير كجارد على أن زحمة الجماهير بعيدة عن الصدق، لكن رجل الشارع ينظر إلى الموضوع نظرة أكثر واقعية.

واضح إذن ذلك الخطر المقيم الذى يتهدد المجتمع المحتاج إلى سواعد وقرائح أبنائه من الرجال والنساء المستقلين المبتكرين لضمان استمرار حيويته، ومما يزيد الخطر، دقة العملية وتشابكها.

وثمة صعوبة أخرى (أتينا على ذكرها) تتمثل أن العمليات المركبة في المجتمع العصرى من شأنها أن تدفع الفرد إلى القيام بدور تخصص مفرط في التخصص، بما يحرمه من التنوع والشمول والكفاءة العامة التي ينبغى له الحفاظ عليها بأى ثمن، ولن يصعب عليه فحسب أن يفهم صلته بالعالم من حوله، بل يقل وقته (أو ميله) لاكتشاف هذه العلاقة في غمرة اشتغاله بتأهيل نفسه لسداد ثغرة في النظام المعقد.

ومن أوضح الأخطار في المجتمع الحديث أن الناس رجالاً ونساءً يفقدون خبرة الإسهام في القرارات ذات المغزى المتعلقة بحياتهم وعملهم، حتى يصبحوا تروساً في الآلة بسبب "شعورهم" بأنهم كالتروس في الآلة. وكثيراً ما يحدث اليوم أن يكونوا عناصر خالدة في الجماعة، لا يسهمون في نشاطها بآية وسيلة ملحوظة، إنما تموج بهم الحياة كأنهم حبات الرمل في دلو.

ويتحدث مالكولم كاولى عن "الجيل المفقود، فيقول:

"لكن اضمحلال المجتمع كان من الناحية النفسية مضاهياً لتقدمه . فقد كان كلاهما عملية آلية لا نستطيع نحن أن نقدم فيها أو نؤخر. كان المجتمع شيئاً غريباً عنا، لا يمكن أن تؤثر فيه حياتنا. كان أشبه شئ بعربة فسيحة نركبها وتمر بنا في طرق عهده نحو هدف لم نكن لنختاره لأنفسنا".

والنتائج الوخيمة لمثل هذه الاتجاهات على الروح المعنوية للمجتمع واضحة ظاهرة فإذا لم يتيسر للفرد بعض الفهم لمعنى صلته أو علاقته بالكل، تعذر عليه الاحتفاظ بإحساس حى بقدرته على التصرف كفرد، إحساس أكيد بكرامته ووعى بدوره ومسئولياته، وبذا ينحو إلى قبول دور المتفرج وينحرف إلى السلبية.

وليس من السهل على مجتمع حديث مركب أن يحول دون هذه النتيجة، فالفرد مقيد بشبكة من الأمور المبهمة المجردة، وبديلاً من أن

يعمل لصالح صابح عمل معروف يشتغل في مؤسسة، وبدلاً من أن يتصدى لقوى السوق، وبدلاً من أن ينتج شيئاً بيديه، يقلب الأوراق أو يضغط على الأزرار ويتلقى أوامر من أناس لم يقابلهم قط ويتقدم بتوصيات دون أن يعلم أولئك الذين سوف تسرى عليهم، وقد صور موظف حكومى كبير معروف الحياة التنظيمية العصرية في صورة معبرة بقوله: "إننا نوقع على ما لم نكتبه، وما نكتبه يوقع عليه آخرون".

والنقد الكلاسيكي يوجه لخط التجميع في الإنتاج الحديث هو أن العمل ينظم بطريقة لا تسمح للعامل بالإسهام في وضع القرارات أو ممارسة نتائج هذه القرارات، ومن المهم أن نتبين أن هذه ليست إلا نتيجة "للطريقة، التي نظم بها العمل وليست شراً لا ينفصل عن "الآلة". وتخطئ الحملات العاطفية الموجهة للتصنيع، إذ يفوقها عادة إدراك هذه النقطة، فليس الذنب ذنب التصنيع، وربما كان العمل بالطريقة البدائية مثبطاً للهمة كخط التجميع سواء بسواء، إنما ينحصر الخطأ في توزيع العمل الذي يغفل حاجات الفرد.

ويعتبر هذا إلى حد ما نتيجة حتمية للتنظيم الحديث الواسع النطاق، ويمكن بلوغ أعظم المستويات الاقتصادية بتركيز القرارات، وقد برع المجتمع الحديث المركب بصورة خيالية في تحقيق هذا التركيز. وهناك من الخطط والمبتكرات التى لا عد لها من الفطائر الجاهزة إلى الآلات الالكترونية الحاسبة، ما يريح الفرد من عبئ اتخاذ قرار. ولا عجب في أن يتساءل النقاد عما إذا كان الإنسان العصرى سوف يصبح مستهلكاً

قعيداً لأصناف سبق هضمها ومنفذاً عديم العقل لمهام سبق تخطيط برامجها.

لكن الفرد، بوحى من غريزة غامضة تدفعه للبقاء يتخذ لنفسه هواية يتهيأ له فيها صنع القرارات. وتستحق هنا حركة "أصنعها بنفسك" وقفة قصيرة. فعندما يسوق أحد المنتجين مهمات متينة موضع ثقة كبيرة صممت لتباع في حالة مفككة حتى يجد المستهلك متعة في تركيبها، فإنه يتصدى لبعض التيارات القوية في زمننا، فخلال القرن الماضى كرس المجتمع الصناعى براعة ومهارة مبتكرة لهدف إعداد مهمات جاهزة الصنع لا تقيل الخطأ في يد المستهلك السلبى المتكاسل. على أن من بين أولئك المستهلكين نسبة كبيرة لها نوعات منطلقة لا تحقق رغبتها تلك الحيل المبتكرة والمهمات الجاهزة الصنع، فهم يريدون أن يشغلوا أيديهم وأذهاهم بممارسة أعمال إيجابية، يريدون أن يتأملوا شيئاً ما ويصوغوا شيئاً ويسمعوا بكفاحهم من أجل شئ ما، ولم تكد نبدأ بعد استيعاب المعانى التى ؟؟؟ هذه الحقيقة.

التنظيم من أجل الحرية:ـ

لا يحد التنظيم الواسع النطاق من حرية الفرد دائماً، فهو في بعض النواحى يزيد من هذه الحرية.

ونتيجة للتنظيم الواسع المدى يستمتع الرجل العصرى بحريات لم يكن في وسعه الاستمتاع بها بوسيلة أخرى. فمن الجهاز الصحى الواسع التنظيم تنبثق نتائج تحرر الفرد من الأمراض التي فتكت بالإنسانية طوال القرون، وتعمل الجامعة الحضرية الكبرى، التي يعتبرها بعض النقاد شيئاً لا يتجاوز كثيراً مصنعاً ضخماً، على أن تضع في متناول ملايين العمال من ذوى الدخول المنخفضة فرصة التغلب على الجهل واتساع الأفق.

ويمارس الرجل الذى ينتقل من مدينة صغيرة إلى مدينة كبيرة حرية لم يتعود عليها، فهو لا يتحرر من عوائق التقاليد والرقابة التى تميز المدينة الصغيرة فحسب، بل إنه يجد كذلك في المدينة الكبيرة فرصاً أكبر للاختيار في كل مجال، كأنواع المساكن والسلع الاستهلاكية ووسائل التسلية والحياة الاجتماعية والثقافية والعمل.

وطبيعى أن هذه الحرية الجديدة سرعان ما تُؤخذ على أنها أمر مسلم به. فعندما يجد الناس أن نطاق اختيارهم قد اتسع، فإنهم يزيحون ببساطة، من مستوى مطامعهم بالنسبة لحرية الاختبار، فبدلاً من أن يكونوا شاكرين الحريات الجديدة، فإنهم يسخطون على القيود الباقية التي تحد من حريتهم، ويجب ألا ننسى أبداً أنه في الوقت الذي هيأ فيه العالم الحديث أسباباً للشكوى، فإنه قد هيأ كذلك وجود الرجل صاحب الشكوى، الرجل الذي يتوقع أكثر مما توقعه أى من أسلافه.

تمثلت لخاطرى هذه الفكرة من وقت قريب عندما كنت فى زيارة أحد الأصدقاء من العلماء الأكاديميين. كان يجلس فى مكتبته المعدة بجهاز

تكييف الهواء وإلى جانبه جهاز تسجيل فاخر يجئ له بأجمل القطع الموسيقية من إنتاج ثلاثة قرون، وكان على المكتب أمامه فيلم مصغر لإحدى أوراق البردى المصرية القديمة، وقد حصل عليه بطلب عادى عن طريق مكتبة جامعية، وأخذ يصف في رحلته الأخيرة التي استغرقت عشرة أيام إلى لندن وباريس والقاهرة للتشاور في أعمال الكشف الأثرية التى تمت أخيراً، وقصارى القول، إن التكنولوجيا الحديثة والتنظيم الاجتماعى كانا في خدمته بطريقة ملموسة واضحة. وسألته عما كان يشتغل به في تلك اللحظة، فأجاب بأنه يعد مقالاً لإحدى الصحف الأدبية عن الشر المستطير الذى جاءت به التكنولوجيا الحديثة والتنظيم الواسع النطاق.

ويزعم بعض النقاد أن النمو في حجم وتشابك التنظيم كانت تصاحبه زيادة في علاقات السلطة والرئاسة، لكن علماء التاريخ وعلم الإنسان لا يؤيدون هذه النظرة، فإن روح الرئاسة يمكن أن تزدهر في تنظيم قوامه رجل واحد وسكرتيرته بنفس العنف الذي يمكن أن يحدث في تنظيم كبير كشركة جنرال موتورز، ثم إن الشركات الصغيرة لا تهيئ حتماً لموظفيها جواً من الحرية أكثر مما تفعل المؤسسات الكبيرة، ومن الأهم الصغيرة ذات الكيان الاجتماعى المتخلف أهم على نفس مستوى الأمم الحديثة من الاستبداد إن لم تزد عليه، والواقع أن القبيلة البدائية أو المجتمع السابق على الصناعة قد اقتضى عادة من الفرد خضوعاً للجماعة أشد وأعمق مما يقتضيه أي مجتمع حديث.

وقصارى القول إن التنظيم الواسع النطاق لا يمكن التنديد به على طول الخطة، الأمر الذي يزيد من صعوبة المشكلة، كما يزيد من أهميتها، فالتنظيم يخدم الإنسان ويخصمه ويزيد من آفاقه ويكبله بأغلاله، ولابد أن يكون على قدرة فائقة في التمييز عند مقارنة مزاياه بما يحتمل من مساوئه، وإذ نفعل ذلك سوف نتبين أن الأمر يتوقف على أساليب التنظيم.

وليس بوسعنا أن نعود إلى عالم سبل بسيط، وكم من نقد اجتماعى معاصر قد بات غير ذى موضوع لرفضه مواجهة هذه الحقيقة. وصحيح أن الضغط والثورة في مجتمعنا لا يمكن مقارنتهما بالهدوء والسكينة فى قرية قديمة مثل بريتانى. لكن المقارنة لا تعالج اختياراً متاحاً لنا، فلابد أن نعيش في عالم الواقع الحديث، ولا يمكن أن نتخلص من ضغط الاتجاه إلى المزيد من التشابك والتعقيد في تنظيم اقتصادنا وإنتاجنا وحياتنا الاجتماعية والثقافية والسياسية، ولابد أن نسيطر على أشكال التنظيم الجديدة وإلا سيطرت علينا.

وأكثر ما يبعث على الأمل اليوم أننا في "بعض الجبهات" يبدو أننا نحقق مناهج في التنظيم تتجنب الحماقة والجمود وتهديدات الحرية الملازمة لألوان التكامل ذى الطرف الواحد، فإذا كان هذا صحيحاً فقد يكون أهم حقيقة منفردة في مستقبلنا

فمن الممكن أن نستمر في بلوغ قمم المستويات الاقتصادية، ومع ذلك نعتنى بالحاجات الإنسانية، وكثيراً ما وضعنا في الماضى أنظمة لمواجهة كافة المتقضيات الهامة باستثناء المقتضيات الإنسانية التي تسهم في

راحة ونمو المشتركين في العملية، وينبغى ألا تصمم التنظيمات بطريقة تحطم المبادأة الإنسانية، وهي تصمم بهذه الطريقة لأننا لم نشأ أن نكون على نفس الدرجة من الابتكار في الشئون التنظيمية، كما كنا في المصنوعات المعدنية.

ومن الضرورى أن نحرص في السنوات القادمة على أن ندرس ونحلل تحليلاً دقيقاً وطأة التنظيم على الفرد، لابد أن نبحث الظروف التي يصح فيها التنظيم خطراً يهدد الفرد، وألوان الأساليب التنظيمية التي تعتبر مصدر خطر كبير والضمانات التى يمكن إدخالها على التنظيم للحد من الخطر. ولابد أن نتبين كيف نصمم التنظيمات والمؤسسات التكنولوجية بطريقة تتيح استخدام المواهب الفردية إلى أقصى حد مع الحفاظ على مشاعر الرضا والكرامة الإنسانية ؟ لابد أن نتعلم كيف نحمل التكنولوجيا على خدمة الإنسان لا من حيث الإنتاج النهائى فحسب بل في سياق العملية.

ويعتقد بعض نقادنا الاجتماعيين أن طريق النضال من أجل الحرية في عالم يؤمن بالتنظيم ينبغى أن يكون على قدر الإمكان طريق الحرص على عدم الالتزام بالأوضاع فيرددون عبارة صمويل جلدوين الخالدة "فلتضمنى إلى خارج الصف"، وليس هذا مما يؤسف له كلية، فقد نرى زماناً نشكر فيه من يعارض عالم التنظيم الزائد على الحد، لكن له حدوده كخطة، فإذا قدر الإنسان الحرية بحيث ناضل من أجلها بذكاء، بات عليه

أن يفهم لماذا وكيف كانت بعض العوامل في الحياة التنظيمية ضارة بالفرد وبعضها مفيدة له ؟

لكن المعرفة وحدها ليست كافية، ولن تكون كذلك أبداً فهى يمكن أن تستغل لاستعبادنا أو لتحريرنا سواء بسواء، والحق أن قدرتنا الفنية العظيمة على التنظيم قد استخدمت مراراً بطرق تضر بحرية الفرد، ولن تكون المعرفة سلاحاً مأموناً إلا إذا ارتبطت باعتقاد راسخ بأن التنظيمات قد خُلقت من أجل الناس ولم يخلق الناس من أجل التنظيمات.

والهدف النهائي لهذه المعرفة هو تهيئة البيئة التي تتيح للفرد تحقيق ذاته، ومن سخرية الأمور أن تعمل المنظمات التي يصممها الإنسان لمصلحته على الإضرار به ، ولن نستطيع التخلص من الصرع بين الإنسان وتنظيماته ولا نود أن نفعل، لكن بوسعنا أن نصر على أن يكون من أهداف أى تنظيم تطور الأفراد الذين يشكلونه.

ولسوف نظل ضحايا التنظيمات التى نضعها لتخدمنا حتى يتيسر لنا فهم، أعمق للتنظيم، وكما يستخدم علماء الأحياء اليوم معرفة توازن الطبيعة لمقاومة الآفات الحشرية، باستخدام قوى طبيعية لمقاومة قوى طبيعية أخرى، فإن علماء المجتمع قد يستخدمون المعرفة بالتنظيم في التنظيم من أجل الحرية.

ولعبارة "التنظيم من أجل الحرية" اليوم رنين متناقض؛ لأن مجرد فكرة التنظيم من وجهة نظر كثير من أهل الفكر تبدو مناهضة للحرية

الفردية، لكن الحقيقة أننا ما لبثنا ننظم من أجل الحرية من زمن بعيد. ثم إن نظامنا القانونى الدستورى لون من التنظيم الاجتماعى الموضوع بغرض حماية الفرد من سوء معاملة الآخرين له، ومن أولئك الآخرين النظام الاجتماعى ذاته.

ومن المفيد أن نذكر أنفسنا بأن حرياتنا لا تكاد تصمد للحياة دون جهد من جانب الإنسان، والصورة التى ترتسم في ذهن رجل الشارع عن الحرية أنها الحالة الطبيعية، وأن التجرد من الحرية حالة انحراف مصطنع غير طبيعى. ويحسب أن الحرية، كالشمس والهواء النقى، هنالك دائماً في متناول المرء ما لم يكن ثمة من يحول بينه وبين الاستمتاع بها عنوة، لكن الحرية كما نعرفها الآن شئ نادر شديد الندرة في تاريخ الإنسانية. وهي ثمرة قابلة للعطب من ثمار الحضارة وتتوقف كلية على عادات ذهنية معينة يشترك فيها الجميع، وعلى تدابير تنظيمية معينة يتفق عليها الجميع، وهذا أمر جدير بالإشارة إليه لأن بعض المحدثين تستويهم فكرة الفرد بصورة لا يفكرون معها في التحدث من أجل المجتمع، وهم يتصورون أن الأثر الوحيد الذي يمكن أن يكون للمجتمع على الفرد هو أثر هدام، لكنه عن طريق المجتمع الحر يظل الناس أحراراً، فإذا شاء الناس الحفاظ على حريتهم فإنه يجدر بهم أن يحرصوا على صحة وقوة وحيوية مجتمعهم الحر، وعلى قدرته في مجال التجديد.

الفصل السابع
ظروف التجديد

النبت التالف والنبت الصالح:ـ

لا يكفى أن يتبين المجتمع الحاجة إلى التجديد، بل لابد أن تتيسر له التدابير التنظيمية التي تجعل من التغيير المنسق شيئاً ممكناً.

ويرى كثير من المراقبين أن الحرية هى وجود اختيار بين شيئين أو أكثر، ويتسم المجتمع أو التنظيم بالاستبداد بالقدر الذى لا يتهيأ فيه الخيار أمام الفرد إزاء تصرف معين. والمعنى هنا بديهى واضح ولا يُقارن بمزايا المجتمع الجماعى، المجتمع الذى يتواجد فيه كثير من جهات اتخاذ القرارات بدلاً من جهة واحدة فحسب، فتكون السلطة فيه موزعة توزيعاً شاملاً بدلاً من أن تستأثر بها جهة واحدة. وفي مثل هذا المجتمع يتهيأ المجال لتباين الآراء بدلاً من أن يقتصر على مذهب رسمى واحد، وتنبثق المبادأة والابتكار في الشئون الاقتصادية والسياسية والاجتماعية من مصادر كثيرة بدلاً من اقتصارها على واحد، وتتيسر للفرد عضوية أكثر من مصدر يستطيع عن طريقه أن يحصل على المعلومات ويعبر عن آرائه.

وليس هناك ما هو أجدى وأهم من هذا اللون من التنوع والتعدد في المجتمع على التصدى لدورة النمو والاضمحلال، فالتنظيم (أو المجتمع)

الدائم التجدد لا يتصور أنه يستمتع بشباب دائم، ويعلم أنه يتقدم إلى الشيخوخة دائماً أبداً ، ولابد أن يصنع شيئاً إزاء ذلك. ويعرف أن من نبته ما يتلف بمرور الزمن، ولابد لهذا السبب من أن يعتنى بنبته الصالح، ويتمثل في الأفكار الجديدة والطرق الجديدة في أداء العمل والاتجاهات الجديدة. وإذا كان لابد لكافة الابتكارات أن تمر أمام جهة مركزية واحدة لاتخاذ القرارات ما تهيأت لها إلا فرصة واحدة، فرصة ضئيلة للبقاء، أما في التنظيم الذي يضم جهات متعددة للمبادأة واتخاذ القرارات فإن الابتكار يحظى بقدر أكبر من فرص البقاء، فقد ترفضه تسع من جهات اتخاذ القرارات العشر، وتقبله الجهة العاشرة، فإذا ثبتت صلاحيته عندئذ فقد تقبله التسع الأخرى فيما بعد.

وليس المجتمع المتحرر هو النوع الوحيد الذي يستطيع أن يحقق التجديد المستمر، والأمر أبعد ما يكون عن ذلك، فإن نظاماً ديكتاتورياً يتقلد الحكم في أعقاب ثورة قد يكون صالحاً تماماً لتحقيق انطلاقة كبيرة من التغيير المجدى، لكن على مر الزمن تتعرض طاقته المتفجرة لا لخطر الموت فحسب، بل لخطر زحف الجمود المميت الذي يحل محلها، وهو بمقارنته بالمجتمع الحر لا يصلح تماماً للتجديد المستمر جيلاً بعد جيل، وهذا صحيح لأسباب عرضنا لها فعلاً– نذكر منها خاصة عدم وجود تلك التدابير التنظيمية التى تهيئ القدرة على التحور والمرونة– فإذا سيطر على المجتمع رأى رسمى واحد فإن بداية رأى جديد قد تكون مبعث قلق مدمر أما في المجتمع الذى يضم فعلاً مختلف وجهات النظر، فإن انبثاق

وجهة نظر جديدة لا يكاد يلحظه أحد. وفي المجتمع الطليق تكفل حرية الاتصالات التقاء الأفكار الجديدة بالقديمة.

ولقد نجم عن التغييرات الكبرى في المجتمع دائماً على مختلف مراحل التاريخ تمزق خطير في الكيان الاجتماعى . أما المجتمع الطليق فهو ؟؟؟ لإختبار الأفكار الجديدة والإبقاء عليها، وتحدث فيه التغييرات الكبرى دون عنف، ربما له أهمية خاصة، فكرة النقد البناء المخلص– أى تكره وجود دور شرعى لأولئك الذين يكنون الإخلاق لحاكم إنما قد يختلفون معه في الرأى – كذلك من المهم وجود تلك الأساليب السياسية والقانونية والاجتماعية المألوفة في المجتمع الحر التى يحسم بها النزاع ويكفل التقاء الآراء المتعارضة في إطار من النظام.

ومن أبرز الضمانات ضد تكتل وجهة نظر واحدة ما جرى عليه العرف من توزيع السلطة وفرض القيود عليها. فسلطة حكومتنا محدودة، وحتى في نطاق الحكومة هناك عناصر الاعتراض والتوازن والتنافس والتنازع وكثير من الظروف التي تمارس فيها المبادأة والابتكار وتتنافس المؤسسات البكرى مع بعضها بعضاً، كما تتنافس مع عدد كبير من المؤسسات الأقل شأناً، وتحد من سلطتها في كثير من النواحى سلطة الحكومة والعمال، والعمال أبعد ما يكون عن الاستئثار بالسيطرة حتى على شئوهم، ولابد من أن يلتقوا بوجهة نظر الحكومة وأصحاب الأعمال في بلوغ أهدافهم.

وبديهى أن يهيئ العدد الكبير من المجموعات، المنظمة وغير المنظمة التي تسهم في مزاولة السلطة السياسية، أسباب المرونة في المجتمع، فارتباط هذه المجموعات بمختلف الصور واندماجها وارتفاعها وانخفاضها في وضعها السياسى، يحتفظ المجتمع ككل بمرونته.

وثمة مفهوم خاطئ عن الكفاءة يرى في اتجاهات التنوع والتعدد مضيعة للجهد ومبعثاً للحيرة والخلط. وطبيعى أن تكون الحاجة إلى الكفاءة أمراً لا يجوز الاستخفاف به، وفي عالم متجهم كعالمنا، يتحتم على المجتمعات الحرة أن تثبت قدرتها على أداء وظيفتها في كفاءة. لذا فإن الإسراف في التنوع يمكن أن يؤدى إلى الخلط والارتباك. لكن التنظيمات أو المجتمعات الخلاقة نادراً ما تكون مرتبة منسقة، لذا فإن بعض التسامح إزاء المتنافضات واضطراب الأهداف والخطط والمنازعات إنما هو ثمن الحرية والحيوية.

ويضاهى تقليد توزيع السلطة أو تشتيتها على هذه الصورة تقليد التسامح والحرية الفكرية من حيث الأهمية، إذ يتيح هذا تنوعاً في المعتقدات وتسامحاً في التقاليد المتباينة وتعدداً في الأوضاع الثقافية التى أسهمت إسهاماً كبيراً في حيوية حياتنا القومية.

وثمة ظاهرة هامة في عنصر التعدد والتنوع في حياتنا وهى مختلف التنظيمات التى قد ينتسب إليها الفرد، فقد يكون موظفاً بجنرال موتورز ومبشراً بتعاليم الكنيسة الكاثوليكية، وعضواً في اتحاد العمال الميكانيكيين، وعضواً مسجلاً في الحزب الديمقراطى وعضواً أمريكياً في

جماعة الليجينور، وعضواً في هذه الرابطة أو تلك. وهذا يعنى أن له سبلاً عديدة لتلقى المعلومات ومجالات كثيرة يستطيع أن يعبر فيها عن آرائه ويتبين ما يدور من أحداث، ولا يتحتم عليه أن يكون في وضع يسيطر فيه تنظيم منفرد على كل ناحية من نواحى حياته.

ومن أهم ضمانات الحماية للفرد في أى تنظيم مجرد وجود تنظيمات أخرى يستطيع أن ينتقل إليها. وتعدد التنظيمات فى أى مجال مع إمكان التنقل بينها من شأنه أن يقلل من استبداد كافة التنظيمات، ذلك أن الاستبداد أو الإكراه يقوم عند ما يتضاءل عدد التنظيمات عما ينبغى، أو تُعاق حرية الحركة بينها بشكل خطير.

وقبل أن تترك هذا الموضوع ينبغى أن نذكر أنفسنا بأن التعدد لا يمكن أن ينجح إلا في مجتمع يتمتع بقدر كاف من قوى الترابط. فبدون هذا الترابط يمكن أن ينجم عن التعدد مجتمع متفكك مشتت. وبالمثل فإن مفاهيم الحرية التى لا ترتبط بمفاهيم النظام من أشد عوامل الانحلال والتفكك في الكيان الاجتماعى، ذلك أنه يمكن أن يكون ثمة نظام بدون حرية ، لكن لا حرية دون قسط ما من النظام. ففى ظروف الفوضى الاجتماعية لا يمكن للفرد أن يستمتع بحريات معينة يكلفها له المجتمع القانونى، وقد قال شيشيرون: "إننا في أسر القانون حتى نكون أحراراً"، وبالمثل فإن فكرة الحرية لدى الفرد لا يمكن فصلها عن مفاهيم المسئولية الأدبية والتنظيم الذاتى، بل إن المسألة ليست مسألة اختيار، فكما قال

إدموندبيرك بحق: إن ذوى العقول المنحلة لا يمكن أن يكونوا أحراراً، فإن عواطفهم تصنع لهم أصفادهم.

حماية المخالفين:-عندما يصبح عنصر من عناصر نظام التعدد شديد القوة بالنسبة لغيره، تصبح جماعية النظام ذاته في خطر. وحتى على أحسن الأحوال فإن العنصر الغالب لا يلبث أن يطغى على العناصر الأخرى أو يجعلها عديمة الأثر وعندما نفكر في القضاء على عنصر التنوع تطوف بأذهاننا تلك الأمثلة الديكتاتورية التى يتم فيها الإخضاع على يد أقلية تحتكر السلطة، لكن من المألوف كذلك أن تقضى على التنوع أغلبية وديعة. من ذلك أن أوائل المنادين بحقوق المرأة تبينوا أن أكبر عائق أمامهم لم يكن هو الأقلية المعادية التي ما فتئت تهاجمهم بل الأغلبية الطيبة نسبياً (وتشمل عدداً كبيراً من النسوة) ممن أيدوا الهجوم. وكم من أغلبية متسامحة جداً نفذ صبرها مع الخارجين عليها.

لذلك فقد ابتدعنا مختلف الطرق لحماية الخارجين على الأغلبية، وتعتبر حرياتنا المدنية جزءاً من هذا النظام وكذلك لائحتنا البرلمانية وإجراءات الشكاوى ورفع المظالم وإيمان الناس عامة بالرأى القائل بوجوب سماع وجهتى نظر الطرفين في أى نقاش، وقصارى القول إن لنا تقليداً، أو مجموعة من الاتجاهات والتدابير الاجتماعية الخاصة التي وضعت كى تكفل حماية وجهات النظر المخالفة للمذهب السائد فلا ترفض على الفور.

لكن لماذا كل هذا الحرص على حرية الخلاف والنقد؟. وفي الإجابة عن هذا السؤال تقرير لمبدأ هام في فلسفتنا السياسية، فنحن لا نتوقع أن تكون التنظيمات أو المجتمعات فوق مستوى النقد ولا نثق بأن يكون الرجال القائمون عليها على قدر كاف من النقد الذاتى، ونؤمن بأن الجوانب السليمة اليوم في المجتمع قد تفسد غداً. ونؤمن بأن السلطة التى تمارس اليوم بالعدل والقسطاس قد تمارس غداً بالظلم والعدوان. ونعلم أنه من بين صفوف النقاد يأتى المتطرفون المشاغبون كما ينبثق من نفس الصفوف المنقذون والمبتكرون، ولما كانت الروح التي ترحب بالخروج على المألوف شيئاً فشيئاً، فإننا لم نعتمد على هذه الروح وحدها، فابتدعنا تدابير دستورية وقانونية مفصلة لحماية الخارج على ما يألفه الناس.

وثمة لون من التسامح إزاء الخروج على المألوف أو عدم التطابق والالتزام تميز به كثير من المجتمعات والتنظيمات البشرية عبر القرون، لكن المحاولة الراعية المنسقة لجعل الحياة ممكنة لأولئك الخارجين إنما هى ثمرة من ثمار العالم الحديث والمجتمع الطليق. ويدل على غرابة هذه النظرية بالنسبة لبعض المجتمعات القديمة نصيحة بتررك راعيه لورد بدأوأ، إذ قال:

"ينبغى ألا تكون سيدأ لرعيتك بل أباً لهم: تحبهم كما تحب أبناءك، نعم كما لو كانوا أعضاء في بدنك، وربما استخدمت الأسلحة والحراس والجنود ضد العضو- أما بالنسبة لرعاياك فحسبك معهم حسن النية، وأقصد بالمواطنين أولئك الذيم يحبون النظام القائم وأما بالنسبة لأولئك

الذين يردون التغيير كل يوم فهم ثوار خونة، ويجب أن تأخذ ضدهم العدالة الصارمة مجراها".

ولنقارن هذه المشاعر بكلمات دافيد بروور إذ يتحدث عن أحد أجهزتنا المقدسة:

"من الخطأ أن نتصور أن المحكمة العليا يشرفها أو يساعدها أن يتحدث الناس عنها باعتبار أنها فوق مستوى النقد، فالأمر على عكس ذلك، إذ أن حياة وطبيعة عدالتها ينبغى أن تكون موضع الرقابة الدائمة من الجميع كما ينبغى أن تخضع أحكامها للنقد الحر من أوسع باب... وصحيح أن كثيراً من النقد قد يكون كأصحابه متجرداً من الذوق السليم، لكن كل أنواع النقد خير من انعدام النقد كلية. إن المياه الجارية مليئة بالحياة والصحة ، أما المياه الراكدة ففيها الأسى والموت".

ولن تنتهى معركة الحفاظ على حرية الخلاف في الرأى أبداً، ولو كانت حريتنا كاملة اليوم لبدأت في الانحلال على الفور، إن في طبيعة المجتمع ما يحمله على ذلك، وكل ما نستطيع أن نصنعه هو أن نكون يقظين.

وطبيعى أن تقليد الحرية لا يسرى إلا في حماية الخارج على المألوف أو المبتكر من أعدائه، فما من سبيل لحمايته من أصدقائه. على أن ما يحدث لسوء الحظ هو أن تكون أول قوة معوقة لمن يخرج على طريق

العادة ورأى الأغلبية، لا طلقات فتاكة من جانب الخصوم، بل مخالب الزملاء والأصدقاء المقربين.

بقى أن نتناول أوجه النقد التى توجه إلى هذا العصر بأنه "عصر المطابقة والالتزام الشديد"، وتشخيص المطابقة للمألوف يعقده وجود جماعات كبيرة تمارس مطابقة والتزاماً شديداً بين صفوفها في وضع غير متطابق مع المجتمع. فعضو الحزب الشيوعى في الولايات المتحدة لن يموت إذا ضبط متلبساً برأى مستقبل عن الحزب، لكنه لا يعتبر نفسه ملتزماً لأن الحزب على خلاف مع المجتمع بأسره، ومن التعقيدات المعروفة موقف غير الملتزم الذى يعادى ببساطة كل شئ يريده الناس عامة، وكما قال دافيد ويزمان بحق. إن هذا أيضاً لون من المطابقة أو نمطية المزاج، وهو لا يقل استعباداً عن أى نوع آخر.

وليس ثمة دليل مقنع على أن الوقت الحاضر أكثر مطابقة من الأزمان السابقة، لكنه على درجة من ذلك تكفى لإزعاج أى ناقد جاد، وجوهر ما قلناه عن الانحلال الاجتماعى هو أن كل مجتمع ينمو نحو نوع من المطابقة، وفي مجتمعنا العصرى المعقد كثيراً ما تتخذ المطابقة أشكالاً تبدو منذرة بالخطر للفردية خاصة.

وهناك أدوار معينة فى أى مجتمع لابد من حمايتها فى حرص وحذر من نزعة المطابقة، ولابد أن يكون الفنانون والكتاب والأساتذة والنقاد والمبتكرون من كل نوع أحراراً في وزن الأفكار بصرف النظر عن مطابقتها لما جرى عليه العرف أو احتمالات قبولها أوقد يمتها التقليدية،

لابد أن يكونوا أحراراً في الحركة والتجوال، ولابد أن تكون أذهانهم حرة فى تصور كل أنواع الاحتمالات.

ولا أقصد بهذا أنهم ينبغى أن يكونوا معاً حتماً للمجتمع ككل. فثمة صورة خيالية للفنان أو الكاتب أو المبتكر تفترض أن يكون معادياً لسائر المجتمع، لكن ما يحتاج إليه هو الحرية في مجال نشاطه الخلاق، حرية التأمل والبحث وتصور أوسع نطاق من الحلول الجائزة ، وفي سياق هذا الكشف الحر وبما وجد نفسه فى وضع مخالف أو مؤيد بالنسبة لمجتمعه. إن من واجبه أن يدعوها عندما يراها. وكما قال إمرسون عن الأستاذ: عليه ألا ينبذ إيمانه بأن بندقية الهواء ليست إلا بندقية هواء وإن أكد قدماء الأرض وإشرافها أنها نذير اليوم الموعود".

الفصل الثامن

التنظيم من أجل التجديد

التجديد المنتظم:-

> إن نفس المرونة والقدرة على التحور اللتين نبحث عنهما للمجتمع ككل لا زمان كذلك للتنظيمات داخل نطاق المجتمع، فإن المجتمع المكون من الشرايين لا يستطيع أن يجدد نفسه.

وفى ملايين الكلمات التى كتبت عن فن إدارة التنظيمات الواسعة النطاق يجد القارئ الصبور قدراً من الحكمة والعلم بالقوى التى تحمل التنظيمات على الجمود والانحلال. وفي أذهان خبراء فن الإدارة أضاف تنظيمية كثيرة غير الأهداف التى تهمنا هنا، لكن كتاباتهم تتضمن كثيراً مما يكشف أسراراً للتجديد والابتكار. ولعل أبرز ما في التجديد اليوم أننا بدأنا متابعته بصورة منظمة، فالمؤسسة الكبيرة لا تقيم جهاز بحوث لحل مشكلة معينة بل ليشتغل بشئون التجديد المستمر، وهذا مذهب صائب في مجال التجديد. ولكن مثل هذه الأجهزة تقصر جهودها التجديدية عادة على المنتجات وعمليات الإنتاج، وربما كانت المؤسسة ذاتها أشد ما تكون حاجة إلى التجديد، وربما كان ما تحتاج إليه كل مؤسسة (وكل تنظيم

آخر) إدارة للتجديد المستمر تنظر إلى التنظيم ككل، كنظام في حاجة إلى تجديد مستمر.

ويمكن تبين نفس الاتجاه غير الكامل نحو التجديد في جامعتنا، حيث يتم قدر كبير من التجديد في كل جامعة من الدرجة الأولى، بعيداً عن كيان أو عادات الجامعة ذاتها، فرجال الجامعة يميلون إلى التجديد بعيداً عن دارهم.

ويعلم المديرون من ذوى الدراية أن بعض التنظيمات يمكن تجديدها عن طريق القيادة الجديدة أو الأفكار الجديدة كما أن غيرها يحتاج إلى دفعة كبيرة من الدم الجديد أو التغيرات التنظيمية البعيدة الأثر. ثم هناك تنظيمات أخرى لا يمكن أن تتجدد إلا بحلها وإقامتها من جديد، كما أن هناك من التنظيمات ما لا يمكن تجديده على الإطلاق.

ولبعض مشاكل الإدارة أهمية خاصة للباحثين في موضوع التجديد، فلنتأمل مثلاً مشاكل المستخدمين: ليس ثمة ما هو أكثر حيوية لتجديد تنظيم ما (أو مجتمع ما) من نظام التربية الذى ينشأ عليه الناس ويتقلدون المراكز التى يستطيعون أن يسهموا جهودهم منها، ويقضى هذا بالنسبة لتنظيم ما سياسة توظيف رشيدة واهتماماً بتنمية الفرد ابتداء من مراحل التدريب الأولى إلى المراحل التالية من التطور الإدارى. أما بالنسبة لمجتمع ما فيعنى إصلاح الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى تعوق وتقضى على الموهبة في مهدها، أو تقليداً عميقاً متغلغلاً يتجاوز كثيراً التعليم الرسمى، في تطوير إمكانيات الفرد تطويراً كاملاً، وقدرة على

الحركة الاجتماعية تمكن المواهب فى أى قطاع من قطاعات السكان من الانتقال بسهولة إلى الأدوار الهامة في المجتمع.

وفى مؤسسة ما، يحقق النظام السليم المحكم في تبادل الخبرات خيراً كثيراً لا فى نمو الفرد فحسب بل في المرونة التنظيمية ذلك أن حرية الحركة أو سهولة انتقال الموظفين في أرجاء المؤسسة من شأنها أن تقلل من معوقات الاتصال الداخلى وتزيل العداوة بين القطاعات وتكفل انطلاق المعلومات والأفكار، فهى تمكن الفرد من تعدد خبراته من ناحية وتمكن المؤسسة من المرونة من ناحية أخرى.

وبنفس الطريقة، يفيد كل من المجتمع والفرد بحرية انتقال الناس من منظمة إلى أخرى، ومن قطاع في المجتمع إلى قطاع آخر، ويصور مجتمعنا صورة المرونة الكاملة، لكنها صور خادعة بعض الشيئ، فليس ثمة حركة وتبادل كبير بالقدر الملائم مثلاً بين الحكومة والشركات الصناعية والدوائر الأكاديمية، بالرغم من النجاح البارز لبعض عابرى الحواجز بين هذه الجهات الثلاث، ثم إن الانتقال بين المؤسسات تحد منه أنظمة المعاشات التي تتوقف مزاياها على مدة الخدمة في نفس المؤسسة.

وثمة موضوع آخر في الإدارة له أهمية خاصة للباحث فى التجديد وهو وسائل الاتصال، وقد عرف خبراء الإدارة الشئ الكثير عن أنواع سبل الاتصال اللازمة للإبقاء على كفاءة أداء أى مؤسسة كبيرة، عرفوا مثلاً أن طرق الاتصال الداخلى يمكن أن قيام الجدران السميكة العالية

بين أجزاء المؤسسة، وبذا يمكن أن تفعل الشئ الكثير في الحد من عدد الموظفين المتقوقعين المسرفين في التخصص، وكل هذا يخدم قضية التجديد.

وقد يكون اختصار طرق الاتصال مفيداً في بعض الحالات، وهناك ظروف تعوق القدرة على الخلق والمرونة كالمغالاة في طلب التنسيق والاستعراض الإدارى وإحكام الرقابة على الفروع الجانبية للمؤسسة. وقد تفقد مغامرات التجربة سريعاً كل نضرة وخصوبة إذا تعرضت للهيب النقد من جانب الأطراف الأكثر تشبثاً بالتقليد في مجال التنظيم.

وقد حدث اعتبارات من هذا النوع بكثير من المؤسسات الصناعية إلى توفير ما يشبه العازل بين أقسام البحوث وسائر التنظيم وحققت القوات الجوية فنسى الهدف عندما أنشأت هيئة "راند" وغيرها من الأجهزة المماثلة في مجال البحوث كمنظمات مستقلة، فحررت بذلك نشاط البحث من القوى والمؤثرات القائمة في نطاق التنظيم الأكبر.

الخبرة المصفاة:ـ

كلما أصبحت التنظيمات (أو المجتمعات) أكبر حجماً وأكثر تشابكاً وتعقيداً، قل اعتماد رؤسائها (سواء كانوا مديرين أو علماء) على الخبرة الجديدة وزاد اعتمادهم على البيانات المركزة في الجداول الإحصائية، وقبل أن تصل إليهم البيانات الطازجة– أو ما يدور هنالك فعلاً فى مكان العمل– تتعرض لسلسلة من عمليات أخذ العينات

والتصفية والنقع والتركز والجمع والصياغة الرمزية والتعبير الإحصائى وتصاغ كلها في تعميمات تتبلور على هيئة توصيات.

ومن سمات نظام صياغة المعلومات على هذه الصورة تصفية أنواع معينة من البيانات فلا تصل إلى يد الرجال الذين يستعينون بهذا النظام. والمعلومات التي تحذف (أو تشوه تشويهاً خطيراً) معلومات لا يسهل التعبير عنها في كلمات أو أرقام، أو لا يمكن تلخيصها بشكل معقول على هيئة قوائم أو جداول وفئات أو معادلات وتعميمات محكمة بأجهزة في متناول أيدينا اليوم.

ولا يستطيع ان يدير مؤسسة حديثة إلا من كان ذا قدرة خارقة على تداول ومعالجة الأرقام النهائية التى تخرجها الأجهزة الحديثة لعصر المعلومات وتقطيرها، وهكذا نجد على قمة مؤسساتنا الكبيرة (وعلى قمة الأجهزة الحكومية) عدداً متزايداً من الموهوبين البارعين في تداول الرموز اللفظية والرياضية وهم جميعاً يفهمون بعضهم بعضاً، لا لأنهم يرون الحقيقة بنفس الطريقة، بل لأنهم عن طريق المران الطويل أصبحوا يرون الحقيقة خلال نفس النظارات المشوهة. ولا يثلج الصدر كما يثلجه الانسجام الذهنى بين خبيرى إحصاء وتحليل عودهما التدريب الطويل على أن يقبلا كحقيقة واقعة نفس التشويه المنسق لهذه الحقيقة.

لكن ماذا يصفيه نظام عصر المعلومات؟. إنه يصفى كافة الانطباعات الحسية التى لا يسهل التعبير عنها بألفاظ أو أرقام. ويصفى عواطفنا ومشاعرنا وأحاسيسنا وأمزجتنا وجميع اللمسات غير المنطقية في

المواقف الإنسانية، ويصفى أحكام الإلهام التى تأتى مباشرة بعد مستوى الوعى والإدراك.

وهكذا، فإن صور الحقيقة التى تبقى عليها المصفاة في قمة مؤسساتنا الكبرى وفى قمة مجتمعنا قد تكون فى بعض الأحيان غير مطابقة لعالم الواقع بشكل خطير. ونعانى عاقبة ذلك عندما نصطدم بمواقف لا يمكن فهمها إلا في ضوء تلك العناصر متى بددتها المصفاة فخبراء التخطيط يضعون خططهم على أساس التنبؤ بأن الناس سوف يتصرفون بطريقة معينة فإذا بهم يتصرفون بطريقة أخرى مختلفة اختلافاً بينا.

وهذا هو السبب في أن على كل رئيس يتربع على شبكة الاتصالات أن يخرج بين الحين والحين من عالمه التجريدى المبهم وينظر نظرة طويلة ثاقبة إلى الحقيقة النابضة التى لم تتعرض لعملية العصر والتركيز، وعلى كل قائد أن يقضى بعض الوقت في الخطوط الأمامية، وعلى كل مشرف مسئول عن بحث أن يقضى بعض الوقت في معمله حيث يجرى بعض أعمال البحث بنفسه، وعلى كل مدير مبيعات أن يخرج بحقيبة عيناته كل حين ويمر على العملاء، وعلى كل سياسي أن يخرج إلى الناس ويقرع أبوابها.

وينبغى ألا يرتكب خطأ التقليل من قيمة أجهزة تركيز المعلومات فهى تساعد بشكل عجيب، لكنها غير كاملة.

التضخم والعجز عن الحركة:ـ

في التنظيم من أجل التجديد مشكلة لم تحظ قط بما هى جديرة به عناية فيما يكتب عن الإدارة، وإن كان الخبراء جميعاً على بينة منها، وهى كيف نقارم اتجاه أى تنظيم نحو المظهرية والجمود والتضخم والانصراف عن البساطة والمرونة والحجم المعقول إدارياً ؟ بما يبرره التاريخ العسكرى بصورة واضحة. فمنذ العصور القديمة، اعتمدت بعض القوات العسكرية على السرعة وسهولة الحركة والمرونة والخيال والجرأة، كما اعتمدت بعضها على مجرد القوة وضخامة العدد والعدة، ولم تستطعْ المجتمعات المزدهرة إلا نادراً مقاومة إغراء إحلال الضخامة محل المرونة. وكلما نما حجم القوات المسلحة وتشابك تنظيمها وتضخم العتاد الحربى والتحصينات أصبحت من بعض النواحى أقل منعة أمام العدو الذي تمكن من السرعة وسهولة الحركة والمرونة في قوته الضاربة. وقد فهم المفكرون العسكريون عبر القرون هذا الأمر تماماً (وإن ندر أن ارتفع وزراء الحرب إلى مستواه) وسعوا عن طريق الابتكار التكنولوجي إلى الجمع بين الحسنيين. بين القوة والسرعة، وبين الضخامة والمرونة. ولكن على الرغم من أن التكنولوجيا بوسعها أن تتغلب على الكثير من المشاكل، فإنها لا تستطيع أن تتغلب بسهولة على العرقلة الشديدة في التنظيم الذى تتميز به القوات المسلحة في دولة كبيرة. وهذا سبب من الأسباب التي جعلتنا نشهد خلال العشرين عاماً الماضية مالاً عدله من المعارك التى استطاعت فيها قوات العصابات الصغيرة العدد القليلة العدة بفضل مرونتها وجرأتها

أن تضيق الخناق على قوات دولة كبرى كبيرة العدد مجهزة أروع تجهيز. ولم تتعلم قواتنا المسلحة إلا مؤخراً كيف تعالج هذا اللون من المقاومة ؟

ولا تقتصر المشكلة على المجال العسكرى، فهى تنطبق على كل أنواع التنظيمات. وإذا كان لتنظيم أن يختار بين القوة الضخمة والمرونة فإنه يختار القوة الضخمة على أى حال، فهو يشعر أنه مضطر لتجهيز نفسه وإعدادها لمجابهة أى طارئ يتصوره العقل، ولو على حساب التوسع الذي يحد من القدرة على التحور، فهو يجد أن من السهل أن يزداد تشابكاً وتعقيداً، وأن من الصعب أن يعود إلى البساطة، من السهل أن يصبح مثقلاً مغلول الحركة، ويكاد يكون من المستحيل أن يتخفف من أثقاله وأغلاله.

وليست المشكلة مقصورة على الحجم فقد تبين معظم الخبراء الآن أن التنظيم الواسع النطاق لا يتحتم عليه أن يستسلم للثقل والجمود البيروقراطي المرتبط بالضخامة. وهم يعتقدون أننا إذا وضعنا هذه الأخطار نصب أعيننا وأعددنا التنظيمات بطريقة نتجنب بها تلك الأخطار، كان في وسعنا أن نستمتع بالمزايا التى يتميز بها كثير من المنظمات الصغيرة، (لا كلها قطعاً) من بساطة واتصال داخلى سهل ومرونة وقدرة على التحور– وننعم في نفس الوقت بمزايا الكبر التى لا شك فيها– كسعة الموارد وضخامة الاقتصاديات ودرجة رفيعة نسبياً من التنوع الداخلى من حيث تعدد المواهب والقدرة على مواجهة العديد من أحداث الزمان.

لكن التنظيم لا يتضمن فحسب شيئاً ينحو نحو الضخامة والتوسع والقوة والمنعة،إنما يتضمن كذلك شيئاً من التمجيد للشكليات والرسميات والمظهرية والسطحية، ولنتأمل التعليم مثلاً: فنحن نحسب أننا نؤمن به إيماناً قوياً، ولعلنا نفعل ذلك حقاً. ومع ذلك فنحن نتقبل كل أنواع التعليم الزائف الذى لا يعدو أن يكون مظهراً شكلياً. ونزعم أن عدداً معيناً من البرامج والدراسات والدرجات وساعات الحضور في الفصل الدراسى والكتب التى يقرأها التلاميذ تدعم مستوى التعليم. ويصدق هذا أيضاً على البحوث العلمية التي ننفق عليها الآن بلايين الدولارات كل عام، ويبدو أننا راضون كل الرضا بالمظهر الخارجى للعملية: من عدد الدولارات المصروفة، وحجم المعامل، وعدد المعنيين بالأمر ووجاهة المشروعات المعروضة وعدد المطبوعات المتداولة. فلماذا نتشبث هذا التضبث المستيئس بالمظاهر الخارجية؟ لأننا، جزئياً، أكثر سطحية مما نود أن نعترف، ثم ربما لأننا جزئياً أكثر تكاسلاً أو انشغالاً بأمورنا من أن نغوص في لب المشكلة، لكن كذلك لأنه من الأسهل أن ننظم الجوانب الخارجية للأمور. ذلك أن الروح الكبيرة الوثابة في التعليم الصحيح والأستاذية الصحيحة لا يمكن أن تخضع للتنظيم أو حدود المنطق أو التفويض أو عملية التعبئة والتركيز. أما الشكليات والمظاهر الخارجية فيمكن أن تخضع لكل ذلك.

أشكال تنظيمية جديدة:-

تدور أسوأ أفكارنا عن التنظيم دائماً تقريباً حول البيروقراطية الكلاسيكية الممتدة الأطراف في الشركات الصناعية والمصالح الحكومية، فتتعلق بالأقسام والفروع والمكاتب والإدارات الغارقة في بحار من المذكرات والمكاتبات. أما من حيث الشكل فهى كالهرم الذى لا تكاد تدرى القلة في قمته شيئاً عما يدور في التنظيم كله. هذا هو التنظيم الذى نكتب عنه القصص، وهذا هو التنظيم الذى تصوره الخرط التنظيمية، وهذا هو الجو الذى يرتفع فيه صبى المكاتب الأسطورى حتى يصل إلى أرفع منصب.

وهذا التنظيم موجود فعلاً، لكن النظر إليه وحده بعد نزعه من إطاره يصور التنظيم الحديث بصورة غريبة مشوهة . ففى العالم اليوم تعمل عوامل مدمرة للتدابير المنسقة في البيروقراطية الصناعية أو الحكومية.

لنتأمل مثلاً نهضة المهن، وهى من أبرز التطورات في التنظيم الاجتماعى الحديث. فالصراع بين المهن والبيروقراطيات تمتد جذوره في طبيعة الممارسة المهنية، فبخض صاحب المهنة مهنته بولائه، لا التنظيم الذى يضمه في لحظة ما، ولنقارن مثلاً الكيميائى أو المهندس الالكترونى في مصنع محلى بالإداريين غير المهنيين في نفس المصنع، فأولئك الذين يعتبرهم الكيميائي زملاءه ليسوا هم شاغلى المكاتب المجاورة، إنما أترابه من نفس المهنة حينما كانوا في أنحاء البلاد، بل في أنحاء العالم كله. ونظراً

لصلات الأخوة التى تربطه بمعاصريه المنتشرين في الأرض، فإنه شخصياً سهل الحركة والانتقال بصورة كبيرة. لكن حتى إذا بقى في مكان واحد فإن ولاءه للتنظيم المحلى يندر أن يكون بنفس درجة ولاء رجل التنظيم الحقيقى لأنه لا يؤمن به كل الإيمان.

وتعنى نهضة المهن أن التنظيم الحديث الواسع النطاق قد زحف عليه أناس لهم مفهوم مختلف غاية الاختلاف عما يعنيه التنظيم ولديهم صورة مختلفة غاية الاختلاف عن صلتهم هم به. ويمكن أن يكون لذلك نتائج بعيدة الأثر على الطريقة التى تُدار بها دقة التنظيم، كما يشهد كل من له علم بإدارة الجامعات والمستشفيات.

ولعل أعداء التنظيم الحديث الواسع النطاق يسرهم أن يتأملوا هذا اللون من انعدام الوفاق بين المهن والبيروقراطية الكلاسيكية أو التنظيم المكتبى. لكن ينبغى ألا يتصوروا أن المهن حليف يمكن الاعتماد عليه كلية، فهى ذاتها تضم إمكانيات كبيرة لتجميد المجتمع.

وثمة تطور آخر غير طبيعة البيروقراطية الكلاسيكية تغييراً عميقاً، وهو تلك النهضة العجيبة في مؤسسات الخدمات. فالمؤسسات العصرية الكبيرة تغزوها كل ساعة من ساعات النهار والليل جيوش من أناس يؤدون نوعاً أو آخر من أنواع الخدمة، وكما أن للتمساح طائراً أليفاً يلتقط الفضلات من بين أسنانه، وطفيليات في جهازه الهضمى، فإن المؤسسة الواسعة النطاق تسمح لعدد متنوع لا يتصوره العقل من الغرباء من دخولها والائتلاف بها. فالمحامون والمراجعون وخبراء الإدارة

والمعماريون ومهندسو الديكور ورجال التأمين والبنوك والعلاقات العامة والإعلام والمهن الصناعى والحراس ومهندسو الأراضى وغيرهم ممن يمثلون قائمة طويلة لا نهاية لها يدخلون المؤسسة الحديثة ويسهمون بما لديهم من تخصص رفيع في حسن الأداء العام– ثم يغادرونها ثانية. وهم جزء حيوى من الوسط الإنسانى وسير العمل، لكنهم لا يظهرون إطلاقاً على الخرائط التنظيمية، وتقتصر صلتهم بالتنظيم على تعاقد مستقل.

وتعدد هذه الخدمات المهنية والفنية، إلى جانب مرونة العلاقة التعاقدية، من شأنه أن يتيح للتنظيم الحديث مجالاً واسعاً للاختيار في تحديد شكل مستقبله. ففى وسع الإدارة العليا أن تضع أصبعها على أى جانب تقريباً من جوانب العمل في نطاق التنظيم وتقرر إسناده إلى مؤسسة خارجية بالتعاقد معها ويهيئ ذلك للمؤسسة التى تود أن تحتفظ بقدرتها على الحركة اللازمة للتجديد فرصاً لا تقدر بثمن ومما له أهمية خاصة تلك الحالات التي تحتم على التنظيم الكبير بحكم طبيعته أن يطلب المساعدة الخارجية. من ذلك مثلاً أن قدراً كبيراً من نجاح المستشار الإدارى يرجع على كونه "من خارج" المؤسسة، وكثير مما يفعله يمكن– نظرياً– أن يتم على يد المختصين داخل المؤسسة، لكن ميزة العمل خارج نطاق القوى الغاشمة التى تفرض سلطانها عليهم. ففى وسعه أن ينظر إلى الموضوع نظرة جديدة، ويعبر عما في صدره ويجد من يستمع إليه.

وفوق ذلك فإنه لما كان ذوو الحرف لا ينعمون دائماً بالحياة في التنظيم الكبير ويؤثرون جو وروح الفريق المهنى، فإن مؤسسة الخدمة

قادرة دائماً على الاحتفاظ بمستوى رفيع من الخبراء لا يستطيع عملاؤها أن يجاروها فيه عادة بالوظيفة المنتظمة.

وثمة تطور آخر لا يتمشى مع المفهوم التقليدى للتنظيم وهو ظهور روابط أو اتحادات ذات أهداف محدودة. من ذلك أن عدداً من الأطباء قد يتفق على اقتسام خدمات مركزية معينة كأجهزة المكاتب والعيادات ومهمات وموظفى المعامل وأعمال الصيانة وما إلى ذلك. كما قد يتفق عدد من أصحاب سيارات التاكسى المستقلين على تدبير الجراجات المشتركة وخدمات التأمين والماحسبة. وقد يشكل عدد من الكليات الصغيرة رابطة تجمع بين جهودهم في التحصيل.

وقد يكون مغزى مثل هذه التدابير كبيراً جداً، ولقد تزايد الشك في قدرة عدد كبير من العاملين الصغار غير المترابطين على البقاء في عالم التنظيمات الضخمة العملاقة وبذا تزداد أهمية الكشف عن أية تدابير ممكنة يستطيع بها الفرد أو التنظيم الصغير أن ينعم ببعض مزايا التنظيم الواسع النطاق دون فقدان كبير للاستقلال الذاتى.

وفي وسع المرء أن يسهب في تعداد مختلف الأشكال التنظيمية التى تضفى على حياتنا القومية شتى الصور والألوان البديعة. ويزيد من هذا التنوع والتلوين ما جرت عليه عادتنا القومية من تشكيل الروابط والجمعيات الاختيارية لإنجاز كل عمل مشترك يخطر بالبال. وبعض هذه الروابط- كاتحادات العمال والأحزاب السياسية والروابط المهنية وجمعيات المصالح المشتركة- على درجة كبيرة من القوة والنفوذ، وقد

أكد كثير من الكتاب أهمية مثل هذه الجماعات في حسن سير المجتمع الحر.

الفصل التاسع

الفردية وحدودها

العزلة للجميع:-

إذا كان المرء أن يختار مفهوماً واحداً يكون موضع اتفاق عام في مجتمعنا لوقع اختياره على فكرة كرامة الفرد وقيمته. فالفرد ليس مجرد عدد معين من الأرطال من المواد الكيميائية مضافاً إليها دلو من الماء.

وهو ليس مجرد حلقة في سلسلة من الصفات الوراثية أو عنصر في نظام بيولوجي اجتماعى، ثم ليس هو مجرد "مورد" (كما يفهم من عبارة الموارد الإنسانية) يمكن استخدامه لتدعيم الترابط الاجتماعى. ولا يحيط به جو من الأهمية فحسب، بل من القدسية أيضاً، ويقتضى هذا، بادئ ذى بدء، حقاً في الحياة وفي الأمن لشخصه، بل يقتضى ما هو أكثر من ذلك. فهناك حدود ينبغى ألا يتجاوزها عدوان على حرمته وتعديد لفرديته ومساس بكرامته.

على أن الإنسان كائن اجتماعى والحديث عن الفردية دون الحديث عن النظام الاجتماعى الذى يجعل منها أمراً ممكناً. إنما يكون من لغو الكلام. لذلك فمن المفيد لنا أن ندرس بمزيد من العمق صلة الفرد بالجماعة.

كان معظم البشر منذ وطئت أقدامهم الأرض محاطين كلية بثقافة قبيلتهم أو مجتمعهم ويتفق على هذا الأمر مؤرخو التاريخ القديم وعلماء الأنثروبولوجيا (علم الأجناس الإنسانية) في دراستهم للمجتمعات البدائية المعاصرة. والإنسان المطمور في مجتمع تقليدى قلما يفكر في نفسه مستقلاً عمن حوله وقابلاً للانفصال عنهم، فهو غارق في ثقافته، ويتقبل تقاليد جماعته ومعتقداتها وأسلوب حياتها بصورة كاملة لا يدرك معها أنه يتقبلها. فهو من الناحية الثقافية إنسان محدد المعالم.

ويرى مثل هذا الإنسان في مجتمعه "الدنيا كلها ويقول دانيال ليرنر إنه عندما سئل القرويون الأتراك: "إذا لم تستطعْ أن تعيش في تركيا، فأين تفضل أن تعيش؟" لم يحر أحد منهم جواباً، لأنهم لم يستطيعوا أن يتصوروا الحياة في أى مكان آخر. وقال بعضهم إنه يفضل الموت، لسهولة تصور قتل النفس، عن تصور الانفصال عن جوها المألوف.

وبالرغم من أن مثل هذا التوقع يفرض قيوداً وحدوداً صارمة على الفردية والحرية على نحو ما نتصورهما، فإن الرجال والنساء المطمورين على هذا النحو لا يشعرون بهذه القيود والحدود. وقد قيل إن آخر شئ تحس به السمكة هو الماء وبنفس البراءة يسبح الإنسان المطمور في ثقافة مجتمعه.

ولا يمكن أن يقوم مثل هذا الجو الحبيس ما لم يتميز المجتمع بلون من الانعزال عن الثقافات الأخرى. وحتى في العالم القديم كانت هناك مراكز حضرية نسبياً فيها عدد كبير من الأفراد غير مطمورين في ثقافتهم

على الإطلاق. وحسب المرء أن يذكر أفلاطون الذى نظر إلى مجتمعه بعين الطبيب الهادئة، الذي يفحص مريضاً صعب المراس.

وفي ضوء هذه الحقائق فإنه ليس من الدقة أن يقول المرء– كما يفعل بعض الكتاب– إن "ظهور الفرد" جاء مع عصر النهضة. أما الذي جاء مع النهضة فهو ظهور الناس الذين أفاضوا في الحديث عن فرديتهم، بصورة تكاد تكون مسرحية. فقد وجد رجال. النهضة أنه من المثير لا أن يكون الإنسان فرداً فحسب، بل أن يتحدث عن ذلك، ويثير ضجة حوله.

وقد تأكدت نزعات الفردية الحدديثة في النهضة بصورة واضحة في غضون القرون الثلاثة التالية وأسهمت حركات الإصلاح وطفرة العلوم "والإنارة" والثورة الصناعية إسهاماً قوياً في القضاء على التوقع كأسلوب اجتماعى مألوف. وأدى هذا التطور إلى إمكان التفكير في المجتمع الحر على نحو ما نفهمه اليوم، مجتمع يشجع فيه كل إنسان وينتظر من كل إنسان أن يصبح فرداً حراً مسئولاً مسئولية أدبية.

وما أن جاء القرن التاسع عشر حتى كان الجو ممهداً للتعبيرات والمظاهر المتطرفة لمذهب الفردية الجديد. وانبثق على نطاق واسع الفرد المتحفز المشغول بفرديته. وقد قال كيركجارد ".. إذا كنت لأختار عبارة تنقش على قبرى ما تمنيت غير عبارة (ذلك الفرد)"، وظهر الفرد الذى يكن عداء شديداً سافراً لمجتمعه، الفرد القادر على الإفصاح عن أعمق مشاعر التنكر لبيئته.

وقد مهد الثائرون من ذوى النزعة الفردية في القرن التاسع عشر الطريق لجيش من الأنصار حيث كانت ظروف الحياة العصرية ملائمة كل الملاءمة لإحراز بعض ألوان الانفصال والاستقلال الفردى. ومن هذه الظروف القدرة على الحركة، إذ تتجه التقاليد إلى الارتباط الشديد بالأسرة والبيئة المحلية دون أن تتمكن من الاحتفاظ بقوتها بين شعب في مرحلة تحول. وتهيئ الحياة الحضرية ووسائل الاتصال الحديثة التقاء التقاليد المتباينة، ونتيجة لاختلاط الأصوات تضعف سيطرة التقاليد جميعاً. وتحت هذه الظروف تتضاءل سلطة الكنيسة ، كما تتضاءل سلطة الآباء.؟ وفوق ذلك تدفقت الأقلام بالمادة القوية عن الثورة والخروج على المألوف مما أصبح في متناول الشباب جميعاً.

وما أن انتهى القرن التاسع عشر حتى بات في وسع أى إنسان من الذكاء والثقافة بحيث يعرف تراثه أن يثور بالأسلوب الرفيع. أما اليوم فلا يقضى الأمر ذكاء أو ثقافة، وباتت فرصة الثورة متاحة على أكمل مستوى ديمقراطي.

فرار من ماذا؟:ـ

وإزاء هذه الظروف ربما كان من السهل أن يعتقد أى مراقب في بداية القرن العشرين أن الطريق ممهد لبلوغ قمم أعلى من الاستقلال الذاتى الفردى ، وهذا افتراض خاطئ، فإن ثمة لونيين من التطور الذي جاء به القرن العشرين حملاناً على إعادة النظر في هذا الرأى، أولهما أنه أصبح

واضحاً أن المجتمع الشعبى الحديث يفرض قيوداً جديدة على الفرد سبقت لنا مناقشتها، وثانيهما أن صوراً جديدة من الدكتاتورية قد انبثقت وحظيت بنجاح مكتسح. ولا تخرج معظم مناقشات العصر حول الفرد والجماعة عن كونها محاولات لمعالجة أمر هذا التطور أو ذاك.

وليس من السهل على شباب اليوم أن يدركوا عمق الصدمة التى حلت بالأحرار في كل مكان من قيام الدكتاتورية الحديثة، فخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأوائل العشرين،شاع بين الناس أن الإنسان يتقدم حقيقة صوب الحرية. وكان الاعتقاد السائد أنه يحرر نفسه ، في بطئ إنما في يقين، من التقاليد البالية العقيمة والأنظمة الاجتماعية الاستبدادية والحكام المتعطشين للقوة والسطوة. ثم إزاء دكتاتورية القرن العشرين بدأ كأن نبت الحرية الذى نما وأصبح شجرة باسقة على مر القرون قد أخذ يذوى. وخطرت لكثير من المراقبين الفكرة المثبطة بأنه ربما كان في الطبيعة البشرية شئ لا يعادى الاستبداد، بل لعله يرحب به.

ويؤكد أن هذه ليست ظاهرة حديثة تماماً في وصفه لانتشار التنجيم ببلاد الإغريق في القرن الثانى قبل الميلاد، قال:

"... ظل الفرد قرناً من الزمان أو أكثر من قرن وجهاً لوجه إزاء حريته الفكرية، وعاد الآن أدراجه فزعاً من المستقبل الرهيب– فحتمية المصير الذي ينبئ به التنجيم أخف وطأة من عبء المسئولية اليومية".

وخلاصة القول إنه من الضرورى دراسة قدرة الفرد على تقبل مسئولية الحرية والظروف التي يضحى فيها بحريته لكسب أهداف أخرى، كانت هذه المسائل التي عالجها إريك فروم في كتابه "الهرب من الحرية". واهتم فروم خاصة في البحث النفيس بإماطة اللثام عن السبب الذى جعل من السهل على الحركات النازية والفاشية فى ثلاثينات القرن أن تكسب الاتباع. وفسر الأمر بالتدليل على أن الرجل الذى يخضع عن طواعية لنظام استبدادى إنما يتخفف من أسباب القلق والمسئوليات التي يلقيها الاستقلال الذاتي الفردى. ويعبر إريك هوفر عن نفس الرأى في كتابه "المؤمن الحق".

ولعله يحسن بنا قبل أن نستطرد في التعليق على هذه النظرة أن نتوقف هنيهة لنتأمل حقيقة الاستقلال الذاتى الفردى، وكثيراً ما يلتقى المرء بالفكرة الخيالية بأن الفرد يستطيع أن يكون سيد نفسه ومصيره، متحرراً من كل قيد يعوقه كأنه طائر طليق. ومثل هذه الأفكار من شأنها أن تؤدى إلى خلط خطير، فالاستقلال الفردى الكامل شئ لا يخطر ببال. وما زالت حكمة ثيوقريطس "لسوف يظل الإنسان دائماً في حاجة إلى أخيه الإنسان" قائمة يزيدها علم النفس وعلم الأجناس، فخصلة الإنسان الاجتماعية ثابتة في طبيعته البيولوجية، ويظل الطفل طوال السنوات الست الأولى على الأقل من عمره معتمداً على ذويه كلية. وبمرور هذه السنوات تكون قد تكونت لديه عادات اجتماعية متغلغلة. وفيما عدا ذلك، فإن كل ما يجعلنا أكثر اتساماً بالإنسانية– من اتصال وإحساس بالذات وعطف وضمير– يتوقف على التفاعل مع مخلوقات أخرى من

نفس نوعنا. وهكذا فإنه– بالرغم من أننا لا نستطيع أن نقبل الفكرة الدكتاتورية بأن أقصى تحقيق لذات الإنسان أن يصبح عضواً لا وزن له في الجماعة، كما لا نستطيع أن نقبل الأفكار الخيالية عن الاستقلال الفردى الكامل.

ولقد مر علينا الآن جيلان رأينا فيهما (وإن لم نفهم دائماً سر ما رأينا) أنه عندما ترخى الحضارة الحديثة الوشائج التى تربط الفرد بتراثه وأسرته، فقد ينجم عن ذلك قدر أكبر من الحرية أو تباعد عن المجتمع وفقدان الإحساس به. وبالمثل فإنه عندما يسعى الفرد إلى الاستقلال الذاتى فقد يحرز الحرية والمسئولية الأدبية أو قد لا يحرز إلا تعاظم النفس مع كل ما يصاحب ذلك من ألوان الاختلال، من أثرة وغطرسة ومبالغة لا حد لها في تقدير الذات وآمال ذاتية لا يمكن تحقيقها.

ومعظم أبناء البشر قادرون على تحقيق قسط من الاستقلال الذاتى والفردية الناضجة مما تقتضيه مفاهيمنا عن الكرامة والقيمة الفردية. لكن بعض أنواع انفصال "النفس" عن "كل ما عدا النفس" مدمر للبر فلا يطيقونه.

ومن المهم أن تعى أذهاننا هذه الحقائق عندما نستخدم عبارة "هروب من الحرية" فما لم نجدد ماذا يهرب منه الفرد وما هو الشكل الذى يتخذه الهروب ؟ فإننا ربما أخفينا تحت عنوان واحد سلسلة طويلة من مناهج المسلك المميزة المتباينة.

وشتان بين ما إذا كان الفرد يهرب من الحرية أى من المسئولية الأدبية للاختيار الفردى، أو من الانعزال الذى لا معنى له مما تفرضه الحياة الحديثة والأنانية الجوفاء التى كثيراً ما تدفعنا إليها الأفكار الخيالية عن الفردية، وإذا كان الأمر كذلك فإن الهروب له ما يبرره، ويكون السؤال الوحيد هو: إلى أين يختار الفرد أن يهرب؟ وقد يرتكب الخطأ المبين بإغراق فرديته في الالتزام الطائش بقضية أو جماعة. أو قد يكون من العقل بحيث يربط نفسه كفرد مسئول أدبياً، بالعمل الاجتماعى الأكبر وبقيم تسمو بالنفس. وطبيعى أن يكون هذا أمراً صعب المنال إذا كان العمل الاجتماعى الأكبر مشتتاً أو بالياً بحيث لا يستطيع الفرد أن يربط نفسه حقيقة به.

ولابد أن يحرز الشخص الناضج قسطاً كبيراً من الاستقلال ليكون في مستوى المثل العليا في الحرية الفردية والكرامة الإنسانية، لكن عليه في نفس الوقت أن يعترف بحدود النفس فيتقبل عضويته في المجتمع الكبير ويدين بالولاء لقيم أعم وأشمل من حاجاته الخاصة.

ولم يفلح بعض ذوى الفكر المحدثين في كشف الغموض المحيط بهذه الحقائق المتناقضة فقد خشوا بأن التهديدات الموجهة للفردية الملازمة لمجتمعنا الحديث المنظم، كما خافوا من شبح رجل التنظيم، فاتجهوا إلى مقاومة أية إشارة إلى أن الفرد لا يكفى نفسه.

ولا تتعارض فكرة وجود علاقة معقولة بين النفس والقيم التى تتجاوز النفس وبين الحرية الفردية. بل إن العكس هو الصحيح، فإن هذه العلاقة عنصر جوهرى من عناصر القوة الداخلية التى لابد أن يتميز بها الرجل الحر. فالإنسان الذى أقام روابط عاطفية وأدبية وروحية تتجاوز النفس إنما يحرز القوة اللازمة لاحتمال أعباء الحرية، ولا يستتر بين أحد في أن تلك الأعباء موجودة وأن تلك القوة لازمة. قد قال وليرناهاند بحق: إن الحرية عبء بالنسبة للجميع، اللهم إلا الفرد النادر.

ولاعبرة واضحة أمام الإنسان الحديث. فمن واجبه أن يغذى تلك الصفات الداخلية في نفسه التى تجعل منه مخلوقاً حراً مسئولاً مسئولية أدبية. ثم إن من واجبه، بنفس الدرجة من الأهمية، أن يحترم القيم التى تتجاوز ذاته.

ويقول بول تلليتش الذى كشف عن هذه العلاقات بعمق يتجاوز جهد أى مفكر معاصر آخر: إن مقتضيات تأكيد الذات والارتباطات التى تتجاوز النفس، هذه المقتضيات التى تبدو متعارضة تنحسم عندما يرى الإنسان نفسه كمصدر توافق وانسجام، وكحامل لعملية الكون الخلاقة، وشريك أصغر في العملية الخلاقة للعالم الأكبر.

طبيعة مهمتنا:-

فلنكن الآن على قدر ما نستطيع من الصراحة والوضوح بشأن المعضلات التى نواجهها في إقامة علاقة مناسبة بين الفرد والجماعة.

ونحن الآن في زمن النفور الداخلى والالتزام الخارجى، ولابد أن نقاوم الاتجاهين، فمن ناحية تفرض، ظروف المجتمع الحديث قيوداً قوية مبهمة على الفرد، وفي نفس الوقت- وهذا هو الجانب المحير- تفت نواح أخرى من الحياة الحديثة في الروابط التى تربط الفرد بتراثه وجماعته وبالقيم التى تتجاوز ذاته. فالمسألة أشبه بغواص البحار العميقة الذى يجد حركاته مقيدة بسبب الحبال الكثيرة التى تشده إلى سفينته، لكنه يجد فى نفس الوقت أن خرطوم الهواء في جهاز قد قطع. فالحبال التى تربطه بالسفينة سليمة كلها، أما حبل الحياة الأوحد فهو مبتور!.

ولعل هذا يحدد معالم مهمتنا. فلابد أن نقاوم تلك النواحى من المجتمع الحديث التى تهدد كيان الفرد ككائن حر مسئول أدبياً، لكن علينا في نفس الوقت أن نساعد الفرد على أن يقيم من جديد أواصر صلة مجدية بمجموعة كبيرة من الأهداف.

وفي سياق عملية النمو يحرر الصغير نفسه من الاعتماد الكلى على الآخرين. وباستمرار عملية النضج يتحتم عليه أيضاً أن يحرر نفسه من سجن اشتغاله الكلى بنفسه. ولكى يفعل ذلك لا يتحتم عليه أن يضحى بفرديته، لكن عليه أن يضعها في خدمة أهداف كبرى عن طواعية، فإذا حال شئ دون هذه النتيجة، فإن الاستقلال الذاتى الفردى يفسد وينحرف إلى نفور أو إلى أنانية وتركيز على الذات.

وليس لدينا لسوء الحظ تقليد لمساعدة الفرد على تحقيق هذا الارتباط، وإن كان لدينا الآن تقليد قوى لمساعدته على أن يفصل نفسه

عن سجن الطفولة. ويبذل معظم المعلمين جهداً واعياص لمساعدة الصغيرة على أن ينمو ويعلو على مستوى معتقدات طفولته. فهم يخرجونه من اتجاهات التعويل على الغير ويدفعونه إلى التفكير لنفسه.

وكما نساعده بهذه الطريقة لتحقيق استقلاله لابد أن نساعده فيما بعد لكى يربط نفسه بعجله أخيه الإنسان وبخير ما فى تراثه الاجتماعى والخلقى والذهنى. وإذا كرسنا الجهد الصادق لهذه المهمة، فإننا سرعان ما نكتشف أن من الأسباب التى تحول دون ارتباط الشباب بالعمل الاجتماعى الأكبر أنهم مضللون لا يكادون يعرفون طبيعة هذا العمل، فهم لا يفهمون حقيقة مجتمهم الحر، ولا يعرفون تراثهم الاجتماعى الفكرى، ولا يدركون مقتضيات وحقائق المجتمع العصرى المتشابك، ولا يعرفون أين المكان المناسب لهم ليقوموا بدورهم. فإذا نريد لهم أن يرتبطوا بخير ما في مجتمعهم. فهم لا يحتاجون إلى، إنما إلى التعليم والتوجيه السديد.

كذلك ينبغى أن نساعد الفرد على أن يتبين كيف يمكن إقامة هذا الارتباط دون تضحية بفرديته ؟ ينبغى أن نساعده على فهم ومقاومة أية نزعة قد تخطر له للهرب من مسئولية الاختيار الفردى للاستسلام الطائش لقضية أو حركة. وقصارى القول فإنه يجب أن نتبين خطر الانطواء على النفس بانعدام الارتباط بما عداها وخطر الارتباط الذى يعرض النفس للتهلكة.

فإذا نجحنا في هذه المهمة الدقيقة. فلن نكون بنا حاجة إلى قبول هذا التعليق المر على العالم الحديث للشاعر بيتس:

إن خير ما فيه متجرد من كل إيمان

بينما أسوأ ما فيه مشحون بالإفراط العاطفى

الفصل العاشر

الارتباط والمعنى

الإرتباط الفردى:-

> يقيم الفرد الناضج إذن ارتباطات بشئ أكبر من خدمة "ذاته الصغيرة المنقبضة"– على حد تعبير ويليام جيمس– ارتباطات دينية،

وارتباطات بمن يحب وبالعمل الاجتماعى وبالنظام الخلقى. وفي المجتمع الحر لا يمكن تحديد ما ينبغى أن تكون عليه تلك الارتباطات على وجه الدقة.

ويمكن أن تتهيأ للشاب الصغير اليوم فرصة أسهل لفهم دور الارتباط في حياته ما لم يضلله التفسير الصبياني الشائع لعبارة "السعى إلى السعادة". وليس من المبالغة أن يقول المرء إن المفهوم العصري لمعنى السعادة لا يمكن أن يأخذه مأخذ أى إنسان تجاوزت عقليته وخلقه مستوى جر وفي الأسبوع الثالث من عمره. وكل من فكر جدياً في سعادة الإنسان من أيام أرسطو إلى جيفرسون لابد أن تعتريه الدهشة إذا تبين كيف تفسر الآن هذه الكلمة.

والحق أن الإنسان عاجز عن الاستمتاع بحياة الخمول على نحو ما يعنيه المفهوم السائد للسعادة اليوم. وبعكس اعتقاد الناس عامة، فإن

الراحة واللذة واللهو والمرح وبلوغ المآرب جميعاً لا تهيئ السعادة للإنسان. والسبب الذي حال دون اصطياد الأمريكيين لطائر السعادة الجميل الأزرق بالرغم من الجهود الجنونية التي لم يشهد العالم مثلها، هو أن السعادة كلذة دائمة وهنا، مقيم ليست حالة في وسع الإنسان أن يطمح إليها. ومن سخرية الأمور أن نحشد كل تلك الحركة الإيجابية التي لا نظير لها للبحث عن هذه الحالة من السكون والسلبية.

وربما كان من الجائز أن تتوهم أمة فقيرة أن السعادة راحة ومتعة وتوفر ما يكفيها من كل شئ. لكننا جربنا الأمر وعرفنا من سره ما لم نكن نعلم.

وبوسع المرء أن يتقبل هذه الحقيقة دون أن يقلل من مباهج الحياة ، وهو حقاً إذا تشكك فيمن يحض الفقراء على القناعة بفقرهم، أو يقول للجائعين إن الجوع مدعاة للنيل والشرف. فكل كائن بشرى ينبغى أن تتاح له فرصة الاستمتاع بما تهيئة العيشة الرغدة من أسباب الراحة والسرور والمتعة، وكل ما نقصده هنا أنها ليست كافية لإدراك السعادة، ولو كانت كذلك لكان الكثير من الأمريكيين الذين في ميسورهم أن ينغمسوا في حياة الترف إرضاء لنزواتهم على صورة ما لم يشهد لها التاريخ مثيلاً في سعادة حالمة، رافلين في حلل الهناء والنشوة بدلاً من تعاطى العقاقير المهدئة.

وهكذا نصل إلى مفهوم للسعادة يختلف اختلافاً جوهرياً عن السعادة التى ترويها الكتب. فسعادة القصص والروايات تتحدث عن

رغبات تلبى، أما السعادة الحقة فتضى السعى نحو أهداف لها معنى- أهداف تربط الفرد بعدد أكبر من الأغراض. وتعنى سعادة القصص حياة الخمول والكسل، بينما تعنى السعادة الصحيحة السعى والجهد الهادف، وتعنى سعادة القصص الاهتمام بالتوافه والإقبال على الملذات، بينما تعنى السعادة الحقة استخدام الإنسان ملكاته ومواهبه على صورة كاملة، ويرتبط كلا المفهومين للسعادة بالحب، لكن سعادة القصص تهتم اهتماماً كبيراً بأن يكون الإنسان موضع الحب، أما الصور الصادقة للسعادة فتولى اهتمامها الأكبر بالقدرة على منح الحب.

وتؤدى بنا هذه النظرة الناضجة ذات المعنى إلى إمكان بلوغ الإنسان السعادة في سعيه لتلبية مسئولياته الأدبية، وهذه نتيجة أبعد ما تكون عن الاحتمال فى ضوء النظرة الحالية ما لم يتصادف أن تكون مسئولياته الأدبية مسلية بصورة فريدة.

وجدير بالملاحظة أننا نتحدث عن السعادة على أنها ترتبط "بالسعى إلى" الأهداف ذات المعنى، لا ببيلوغ هذه الأهداف حتماً. وتتميز بعض المساعى والجهود الإنسانية بأهداف صعبة المنال لا يمكن بلوغها. فالرجل الذى يكرس حياته لإقامة حكم صالح أو للقضاء على البؤس والشقاء قد يحرز انتصارات صغيرة لكنه لا يستطيع أن يكسب المعركة الكبرى، بل يتراجع الهدف أمامه. على أن هذا السعى أو الجهاد، كما يقول أو لبورت، "يضفى وحدة على الشخصية، لكنها لا تكرن قط وحدة بلوغ المراد أو الراحة أو الطمأنينة بانفراج التوتر".

ولهذا السبب فإن الرجل المجدد نفسه لا يشعر على الإطلاق أنه قد "وصل" فهو يعرف أن المهام الضرورية حقيقة لا تنتهى أبداً– ولعلها تعطل أو تؤجل لكنها لا تنتهى قط– وترند أمام الإنسان كافة الأهداف الهامة. والرجل الذي يحسب أنه قد "وصل" إنما يكون قد فقط رؤية تلك الأهداف (أو لعله لم يراها قط من مبدأ الأمر).

ويشيع الاعتقاد بان الإنسان في حالته الطبيعية لن يؤدى من العمل إلا ما تقتضيه تلبية حاجاته البدنية، لكن هذا كما يشهد كل خبير بعلم الأجناس (الأنثروبولوجيا) ليس صحيحاً. فالرجل البدائي شديد الارتباط ببيئته الاجتماعية والنظام الخلقى على نحو ما يفهمه، ولابد للإنسان أن يكون منغمساً في المظاهر المصطنعة للحضارة حتى يكون قادراً على تصور أن الانهماك في المتع المادية قد يكون أسلوباً كاملاً للحياة.

ويستطيع كل ذى بصيرة أن يرى أن معظم الناس رجالاً ونساءً على أهبة الاستعداد لتحمل المشقة والعذاب (ويفعلون ذلك حقاً) من أجل هدف ذى مغزى. بل إنهم كثيراً ما يتصدون للمتاعب من أجل شئ يؤمنون به. وقد كتب مونتين يقول: "لا تعرف الفضيلة شيئاً تصنعه في يسر وسهولة. إنها تبحث عن طريق صعب شأنك".

وليس معنى هذا أن الأهداف التي يستهدفها الإنسان بما يتجاوز حاجات النفس لابد أن تكون أهدافاً تحظى بإعجابنا. فكما قد تتسم بأعلى درجات المثالية قد تكون بدائية فظة أو حتى شريرة منحطة، وهذه ظاهرة هامة في المشكلة. وإذا ارتكبنا خطأ تصور أن مطالب الإنسان

المادية هى وحدها التي تحتاج إلى إشباع وجردناه من كل المعاني السامية، كان الأرجح أن يقبل على أول "معان" تصادفه مهما كانت سطحية حمقاء، فيرتبط بآلهة مزيفة وحركات سياسية غير معقولة ومذاهب ونزوات طائشة وكان لابد أن يوجه تعطش الإنسان للولاء والإخلاص إلى أهداف سامية.

ومن الخطأ أن نغض الطرف عن القول بأن الإنسان مخلوق لا نفس له ولا رغبة إلا في أن يضع نفسه في خدمة مثل أعلى من نوع أو آخر. وإذا كنا قد رفضنا الرأى المغرق في البساطة بأن طبيعة الإنسان مادية أنانية كلية، فإننا يجب ألا نقع في الخطأ العكسى. فالإنسان مخلوق معقد متناقض، أناني، إنما مرتبط حتماً بأخيه الإنسان، ذو أثره، إنما قادر على الإيثار في أسمى صوره. وهو مشغول بحاجاته، ومع ذلك فلا يجد معناً في حياته، اللهم إلا إذا ربط نفسه بشئ أعم وأشمل من تلك الحاجات. ولا شك أن الشد والجذب بين أنانيته وميوله الاجتماعية والخلقية كانا هما مصدر جزء كبير من قصة التاريخ البشرى.

وطبيعى أن يرى كل منا أن جاره ينبغى أن يكون أكثر إيثاراً. ويفسد شعور الإيثار لدينا الأنانية والكسل والتقلب ، لكن حماسنا لدى غيرنا نقى صاف. فصاحب العمل يعتقد أن الموظفين ينبغى أن يكونوا أكثر إيثاراً وإخلاصاً لعملهم (ويعنى عادة أنهم بنبغى أن يؤدوا عملاً أكبر نظير أجر أقل) ويرى المسنون أن الشباب ينبغى أن يكونوا أكثر إيثاراً. وكلنا يألف الحماس الأدنى الذى يضطرم في صدورنا عندما يفكر في المثل

التي ينبغي أن يرعاها غيرنا، وقد قال آرتيموس وارج: "لقد قدمت للحرب اثنين من أبناء عمومتي، وإنني على أهمية الاستعداد للتضحية بأخي زوجتي.."

وينبغي ألا يتخذ شئ مما قلناه هنا على أنه تحبيذ لهذا اللون من الخلق التبريري أو دفاع عن أية صورة أخرى من صور الارتباط المضللة. ولن يكون ثمة سبيل لمنع الحمقى من تكريس أنفسهم للقضايا الغاشمة، وما من سبيل لإنقاذ بعض العقول المختلة من الوقوع في أسلوب من الإيثار، وتكريس النفس لا يعدو أن يكون تعصباً.

وإلى جانب هذه الأخطار الواضحة هناك أخطار خفية أخرى في الإيثار وتكريس النفس للغير. فكل من يظن مثلاً أن التصميم على "فعل الخير للآخرين" لا ينطوي على بعض المخاطر عليه أن يذكر تعليق الكاتب ثورو: "لو عرفت... أن رجلاً سيأتي إلى بيتي بخطة مدروسة ليقدم لي الخير، لفررت منه خوفاً على حياتي". ففعل الخير للغير قد يكون تعبيراً عن أصفى ألوان الإيثار أو قد يكون ببساطة وسيلة لاستعراض التفوق أو حياة التعويض.

التعطش للمعنى:-

الإنسان بطبيعته باحث عن المعاني. ولا حيلة له في ذلك تماماً كما لا حيلة له في التنفس أو احتفاظ جسمه بدرجة حرارة معينة، مما يدخل في نطاق وظيفة جهازه العصبي المركزي.

وقد لقى تعطش الإنسان إلى المعنى إشباعاً كافياً في معظم المجتمعات والعصور مهما بلغت من التخلف التكنولوجي. وبالرغم من أن بعض الأديان والأساطير والخرافات القبلية التى أشبع بها التعطش إلى المعنى كانت بدائية ساذجة، فقد كان المقصود بها أن تصف إطاراً أكبر يمكن أن تفسر في نطاقه الأحداث.

وبقدوم العصر الحديث، خطر لكثير من النفوس الضالة أن الإنسان يمكنه أن يستغنى عن هذا الغذاء. وبدأ هذا ممكناً لحظة قصيرة نظراً للوعود الخلابة التي جاءت بها الحياة العصرية وفي ظل رواية العصرية النافعة، كان المفروض أن يحصل الفرد على الأمن والمال والقوة والإشباع البدنى والوضع الاجتماعى الذي يضع في علوه وضع أى إنسان. وينعم بالحياة المترفة في عالم غنى لا معنى له.

لكن حتى أولئك الذين اقتربوا من تحقيق الحلم لم يتغلبوا قط على الجوع المبرح من حيث المعنى.

فمن ناحية، يعتبر بحث الإنسان عن المعانى بحثاً فكرياً على أساس موضوعى. فهو يسعى جاهداً إلى تنظيم ما يعرف في صيغة مناهج مترابطة، وقد أثبتت دراسة الإدراك أن هذا الاتجاه نحو تنظيم التجربة ليس ثمرة فكرة مدروسة أو نتيجة نزعة شعورية واعية، لكنه ظاهرة مكملة لعملية الإدراك. ومن ناحية الأفكار، ثبت كذلك ميله إلى تنظيم نتائج كلية ذات مغزى من تجربته، ويحاول اختصار سيل الخبرة في نتائج ومناهج منتظمة فيخرج الأساطير والنظريات والفلسفات.

ونظريات الطبيعة والكون التي طورها الإنسان غير شخصية من حيث إنها لا تدخل في اعتبارها آمال الإنسان ووضعه الاجتماعي (وإن كانت تتوقف قطعاً على قوة إدراكه ويندر أن ننعزل كلية عن قيمه) ومن هذا البحث غير الشخصى عن المعنى تمخض العلم الحديث.

لكن الإنسان لم يقتنع قط بهذه النتيجة، فقد أبدى على مجرى التاريخ حاجة ملحة إلى الوصول إلى مفاهيم عن الكون يمكنه في ضوئها اعتبار حياته ذات معنى فهو يريد أن يعرف أين مكانه ودوره في ترتيب الأمور، يريد أن يفهم كيف ترتبط به الحقائق الكبرى للعالم الموضوعى الهادف ؟ وماذا تقتضيه من حيث المسلك. ؟ يريد أن يفهم ما عسى أن يكون هنالك من معنى في وجوده وفي الأديال المتعاقبة من نوعه وفي الأحداث الهامة في حياته الداخلية ويبحث عن لون من إطار ذى معنى يفهم في نطاقه مساوئ الفرص والظروف وحقيقة الموت، أو يربط نفسه بها على الأقل. وقد قال له بعض العلماء والفلاسفة في إصرار إنه ينبغى ألا يتوقع إجابات عن هذا النوع من الأسئلة، لكنه لم يعبأ بقولهم. فهو يريد، على حد تعبير كير كجارد، "حقيقة صحيحة تصدق عليه" ويبحث عن مفاهيم عن الكون تضفى على وجوده كرامة وهدفاً ومعنى.

وعندما يفشل في هذا الجهد يظهر ما يسميه تيلليتش "بقلق إنعدام المعنى"، قلق على فقدان اهتمام يشغله في النهاية، فقدان المعنى الذى يضفى معنى على كل المعانى، وكما أبرز إريكسون فإن بحث الطفل الناشئ عن شخصيته يعتبر من بعض النواحى لوناً من البحث عن المعنى،

إنه بحث عن إطار يتسنى للصغير في ضوئه أن يفهم أهدافه هو، وعلاقته بأخيه الإنسان وعلاقته بالأهداف الأعم الأكبر، وفي مجتمعنا كل فرد حر في توجيه هذا البحث كما يتراءى له، ليجد، إذا أدركه الحظ، الإجابة الصحيحة بالنسبة له.

المعنى والهدف والارتباط:-

وهناك من ينظر إلى معنى الحياة كأنه حل للغز، يظل باحثاً عنه أعواماً طويلة ثم يعثر عليه في يوم مشرق، كما يعثر الباحثون عن ثروة على ضالتهم. وهذه فكرة خاطئة كل الخطأ ، فالمعانى في أية حياة متعددة متنوعة بعضها يدركه المرء مبكراً وبعضها مادة عاطفية شديدة، وبعضها ذهنى خالص ويستحق بعضها وصفه بأنه "دينى" وبعضها "اجتماعى"، لكن كل نوع من أنواع المعانى يقتضى علاقة بين نظام أكبر من الأفكار والقيم، علاقة ترتبط بالتزامات كما ترتبط بمكافآت، وفي الحياة الفردية لا انفصام بين المعنى والهدف والارتباط. فإذا نجح إنسان في البحث عن الشخصية فقد وجد الجواب "لا" عن السؤال "من أكون؟" فحسب بل الجواب عن مجموعة أخرى من الأسئلة هي: "ماذا ينبغى على أن أعيش من أجله؟ وما هى التزاماتى وبماذا يجب أن اربط نفسي؟".

وهكذا نعود إلى موضوع الارتباط. وكما ذكرنا من قبل فإن المجتمع الحر لن يحدد على وجه الدقة أنواع المعنى الذى سوف يهتدى إليه مختلف الأفراد، أو الأشياء التى ينبغى أن تقوم اهتماماتهم حولها. فالناس

يختلفون في أهدافهم واقعة في نطاق الوضع الذي ندين له جميعاً بالولاء، لكننا لا نستطيع أن نشخص الأشياء التي سوف تميط اللثام عن حوافزهم الأصلية وتطلقها من عقالها. وكم تضل السبيل تلك النفوس الغيورة التى تعتقد أن المرء لا وزن له إلا إذا تأجج حماساً. ثم تخطئ عندما نتبع الأسلوب الدارج بقصر القوة الأدبية على النضال من أجل قضية، مما يحظى بإعجاب شعب عملى النزعة مثل الشعب الأمريكي. لكن مثل هذا التأكيد لا ينصف ذلك الفيض الزاخر من ألوان السمو الروحى الذي سعى إليها الإنسان على مر التاريخ وبلغها أحياناً.

إن كثيراً من أعظم الناس قيمة في أى مجتمع لن يتأججوا غيرة وحماساً لشئ سوى كيان أسرهم وصحة أفرادها ورفاهيتهم. فإذا بلغوا هذه الأهداف لم تكن بنا حاجة إلى أن نطالبهم بالمزيد، وفي المجتمع أفراد آخرون لهم قيمتهم لن يقوم لهم إيمان حول شئ يتجاوز ما تنتجه أيديهم أو قرائحهم، ومن شأن المجتمع الرشيد أن يكون ممتناً لهم شاكراً ما يسهمون به. ولن يكون من التسرع أن تحدد معالم الدعوات فيوصف بعضها بأنها نبيلة سامية وبعضها بأنها دارجة. وقد لا نتفق تماماً مع أوليفر ويندك هولز على حكمته "إنما تكون الدعوة عظيمة إذا قامت قومة عظيمة"، لكن فيها بذور الحقيقة.

الفصل الحادى عشر
اتجاهات نحو المستقبل

إلى الأمام وإلى أعلى:ـ

لا يستطيع فرد أن يحقق التجديد ما لم يكن مؤمناً بإمكانه، وكذلك المجتمع. وفي عصور التاريخ كلها قام أفراد ومجتمعات كانت اتجاهاتهم نحو المستقبل قاضية أو على الأقل معوقة لعمليات التجديد.

وثمة فرق يسهل تبينه بين المجتمع (أو الفرد) المتجه بفكره إلى المستقبل والمجتمع المتجه إلى الماضى، ويتطلع بعض الأفراد والجماعات إلى الأمام واضعين المستقبل نصب أعينهم، ويشغل غيرهم ذهنه بالماضى واهتماماته العتيقة. فأولئك لهم إدراك حى بما سوف يصبحون عليه ، ولهؤلاء حس مرهف بما كانوا عليه فيما مضى ويستهوى أولئك عنصر الجدة في تجربة كل يوم، بينما يشعر هؤلاء بأنهم شاهدوا كل شيء.

وما من مجتمع في وسعه أن يجدد نفسه ما لم تكن وجهته المستقبل. وليس معنى هذا أن المجتمع يستطيع أن يغفل ماضيه. فشعب بدون مؤرخين إنما يكون كسيحاً كفرد يعانى مرض فقدان الذاكرة، ولن يدرى ما كان من أمره. ويخدم المؤرخ قضية التجديد بمساعدة المجتمع على أن يعرف المتجدد فإن المؤرخ يستشير الماضى في خدمة الحاضر والمستقبل.

ولا يتوجه المجتمع القادر على التجديد الدائم بذهنه نحو المستقبل فحسب، بل إنه يتطلع إلى الأمام بشئ من الثقة، ولا نقول بذلك إن التفاؤل الأعمى طابعه الغالب، بل نقول إن اليأس بفقدان الأمل لا يصنع التجديد أو يهيئ له.

ولقد كانت النظرة إلى المستقبل الغالبة على الأمة الأمريكية خلال تاريخها متسمة بالثقة والأمل. ويمثل هذا الاتجاه خير تمثيل بنيامين فرانكلين، ففى عام **1729** من بباب بيته في فيلادلفيا رجل متقدم السن "ذو نظرة حكيمة وأسلوب جاد رزين في الكلام"، يقول عنه فرانكلين:

"سألنى هذا الرجل عما إذا كنت الشاب الذى افتتح أخيراً داراً جديدة للطباعة ولما أجبت بالإيجاب، قال إنه آسف من أجلى لأنه مشروع باهظ التكاليف، وإن ما أنفقه فيه لابد أن أخسره، لأن فيلادلفيا مكان مضمحل، أهله في طريقهم إلى الإفلاس".

لم يخف فرانكلين امتعاضه من هذه النظرة الحزينة المقبضة إلى المستقبل. وكان كأجيال من الأمريكيين من بعده ذا أفكار بهيجة خارقة عما يقبع في ثنايا مستقبل مدينته وأمته ونفسه. ويصف فرانكلين حال زائره العبوس المتشائم فيقول:

"ظل هذا الرجل يعيش في ذلك المكان (المضحل)... ممتنعاً سنوات عديدة عن شراء دار هناك لأن أمورها تسير إلى الدمار. وكان من دواعى

سرورى أخيراً أن أراه يدفع ثمناً لدار يشتريها بخمسة أضعاف الثمن الذى عرض عليه أصلاً عندما بدأ نقيقه".

والمجتمع القادر على التجديد المستمر لا يشعر بالألفة بالمستقبل فحسب، بل إنه يقبل ويرحب بفكرة أن المستقبل قد يأتى بتغيير. وفي عام **1831** سأل المؤرخ الفرنسى دى تركيفيل بحاراً أمريكياً لماذا تبنى السفن بحيث لا تعمر إلا فترة وجيزة ؟ فأجاب البحار بأن فن الملاحة يتقدم تقدماً سريعاً تصبح معه أفخم سفينة عديمة الفائدة إذا تجاوز عمرها بضع سنوات، وأعجب توكيفيل بهذا التفسير كنموذج معبر عن الروح الأمريكية فكتب يقول: "إننى أتبين الفكرة العامة المنتظمة التى يوجه منها شعب عظيم أموره واهتماماته".

ومن أصدق نماذج تقاليد المجتمعات في أنحاء العالم وخلال عصور التاريخ، موقف القروى المكيكي، الذي يصفه فرانك نانليوم بأنه لا يتوقع إلا الأسوأ ويحث المسافر على الرحيل بقوله:

"لتذهبن مع الله، عسى ألا يحدث لك شئ جديد".

وفي المجتمع القادر على التجديد لا يرحب الناس بالمستقبل وما عسى أن يأتى به من تغييرات فحسب، بل يؤمنون بأنهم سوف يكون لهم يد في صياغة المستقبل. وهذا الاعتقاد ينتشر بين الأمم الصناعية الحديثة بصورة ننسى معها أنه لا يسرى في كافة أنحاء العالم، والواقع أن القول بأن الناس لا حيلة لها في تغيير مصيرها ربما كان الرأى الأكثر شيوعاً، في

زماننا وفي سائر عصور التاريخ. وهذا اللون من حتمية المصير عائق خطير للتجديد. وقد قال لى خبير زراعى أوربى في وصف الفلاحين الإندونيسيين الذين كان يعمل معهم: "إن هؤلاء القوم لا ينقصهم ذكاء، إنما ينقصهم الحافز، إنهم لا يجدون صعوبة في العمل بالأساليب الزراعية الحديثة إنما الشئ يجدون صعوبة في استيعابه، فهو فكرتنا بأن في وسع المرء أن يصلح من أمر نفسه ببذل الجهد".

وتتطور فى أى مجتمع (أو نظام) مجموعة ثابتة كثيراً أو قليلاً من الاتجاهات الذهنية نحو ما هو ممكن جائز، ولا مفر من أن تضع هذه الاتجاهات حدوداً لا يتجاوزها أداء العمل. فبعد أن قطع العداء روجر بانسنر مسامة الميل في أربع دقائق لأول مرة، ضاعف غيره من المتسابقين هذا الرقم القياسى، وكان الرأى السائد أجيالاً عديدة أنه هدف لا يمكن بلوغه وكان هذا الاتجاه بمثابة عاتق. وعندما تخطى بانستر هذا العائق تبعه غيره على الفور.

وعندما ينضج المجتمع (أو النظام) يحدث تحول غامض، إنما شامل في اتجاهاته نحو ما هو ممكن من الأمور فتتضاءل نزعة الشباب إلى أن "أى شئ ممكن" ويكثر عدد الخبراء القائلين بأن هذا الشئ أو ذاك "ليس ممكناً". ولا يصعب التنبؤ بنتيجة ذلك، إذ تقل الأخطاء ويقل التجديد!. فالثقة الناجمة عن الجهل وعدم الخبرة ليست صفة كريهة بالدرجة التى يتصورها البعض.

على أن الحياة لا يمكن بطبيعة الحال أن نعيشها في إغفال تام للحدود الحقيقية المحظية بالأداء، والواقع أن التقديرات التي يضعها معظم الناس عن حدود ما هو ممكن تقوم "بعض" الأدلة القوية فترعة الحتمية لدى الفلاح الآسيوى لا تثير الدهشة حقيقة، نظراً للدليل الملموس أمامه ولا يمكن أن يكون لدى الناس أمل فيما يمكن للإنسان أن يحققه إلا إذا هيأت مجتمعاتهم الفرصة للنمو كأفراد والتأثير في بيئتهم، عكست اتجاهاتهم هذه الحقائق.

التفاؤل والتشاؤم:ـ

أمل القارئ قد فطن إلى أننا تناولنا الاتجاهات التي يمكن إدراجها تحت عنوانى "التفاؤل" "والتشاؤم"، وهما عنوانان أبعد ما يكونان عن الدقة. وقد عالجنا الموضوع في سياق هذه المناقشة من زاوية ضيقة. لذلك فلابد الآن من التعرض له بمزيد من التفصيل.

نظر المفكرون في أغلب عصور التاريخ نظرة كالحة إلى حياة الإنسان على الأرض. وذهب الإغريق إلى حد الزعم بأن أى سعادة أو نجاح أو عمل عظيم يتحقق في حياة الإنسان قد يكون نذيراً بنكبة تحل به. وكنت جيلبرت موري يقول: "من نذر الشؤم لأى إنسان في الشعر الإغريقي أن يسمى بالرجل السعيد"، ولم تكن بشرى الإنجيل بشرى طيبة للحياة على الأرض، "فقد ولد الإنسان في المتاعب، كما إلى أعلى".

ثم ظهرت في القرن الثامن عشر نظرة مختلفة غاية الاختلاف إلى حال الإنسان، وأخذ الناس يؤمنون بأن حياة الإنسان على هذه الأرض لا ينبغى أن تكون عابسة بشعة. بل إن الأمر على العكس، فربما كانت سعيدة كاملة إذا ما أستخدام الإنسان قوى العقل على خير وجه. وانتشر المذهب العقلى والتفاؤل وبشرى حكم المسيح مما جاء به عصر "الإنارة" في جنيات الحياة الفكرية في كل مكان على وجه الأرض كأنها أمواج صخرة ألقيت في البحر من عل، وانتشر الاعتقاد بأن الإنسان يشق طريقه إلى الأمام وإلى أعلى، طريقاً يؤدى به حتماً إلى المجتمع الكامل. وكان كل ما يلزمه قدراً قليلاً آخر من صدق العزيمة والعقل والعلم والتقدم المادى حتى يبلغ المجتمع الفاضل (اليوتوبيا)

وبالرغم من أنه من السهل الآن أن نضحك من هذه السذاجة، فإن النتائج الطيبة كانت كثيرة. فعلى ضوء هذه العقيدة تم الكثير من خير ما أحرزه العالم الغربى في مجال التعليم والخدمات الإنسانية والعلم، وفى إقامة الأجهزة المدنية لإشاعة العدل والكرامة الإنسانية.

ولما كان عصر "الإنارة" قد جاء في وقت كانت الصفات القومية الأمريكية تتشكل فيه فإن روحه كان لها على الأمريكيين أثر أعمق منها على أهم العالم الغربي القديم ، واتسمت هذه الروح بالجرأة الطبيعية لدى أمة جديدة على قارة جديدة فتمخضت عن خصوبة في الفكرة والطبع والمزاج مما لا يفوت الزائر الغريب أن يلحظه. وقد قال هكتورسان جون كريفكور، وهو فرنسى اشتغل بالمزارع في نيويورك قبل الثورة: "عندما

يصل الأوربى إلى أمريكا لأول مرة يبدو محدود الفكر والرأى... فما أن يستنشق عبير القارة الجديدة حتى يضع المشروعات، وينطلق في تصميمات لم تكن لتخطر له ببال في بلاده".

وفي هذه الأيام من التشاؤم العصري تعرضت روح عصر الإنارة لنقد لاذع، وكان كثير من النقد له ما يبرره، وليس ثمة شك في أن اتجاهات التفاؤل التقليدية قد أعدت الأمريكيين إعداداً أبعد ما يكون عن الملاءمة لمواجهة مأساة القرن العشرين ووحشيته وفورانه. فالأذهان التى أعدت لتوقع حكم العقل لم تكن مهيأة لمواجهة عالم اللامعقول والكراهية، ولم يكن ثمة سبيل أمام الأذهان الموجهة لفكرة التقدم كى تجابه فظائع دانشو وبوخنفالد. ووجد الرجال الذين يؤمنون في تطرف بقدرة الإنسان على التحكم في مصيره صعوبة في التعامل مع، أو مجرد التفكير في القوى الاجتماعية المنتشرة التى راحت تعيد تشكيل العالم.

التشاؤم العصري:-

إن طريق العودة من تفاؤل عصر الإثارة معروف مألوف لكافة المفكرين المحدثين. وقد تنبأ كتاب من أمثال كيركجارد ودوستوفسكى بالتغير الفكرى، أما فرويد ذو النزعة العقلية العنيفة فقد وجه ضربة قاصمة إلى الاعتقاد السائد في معقولية الإنسان ثم تعاقبت الأحداث المريرة في العشرين من مذبحة الحرب العالمية الأولى والكبت الرهيب للحرية في

الثورة الشيوعية ووحشية النازية والفاشية إلى الحرب العالمية الثانية وغرف الغازات الخانقة والقنبلة الذرية.

وليس من الغريب أن ينظر رجل منتصف القرن العشرين إلى العالم نظرة أحلك من نظرة جده إليه. لكن الساعة قد بلغ ذروته بالنسبة لبعض معاصرينا الذين فاض بهم كأس اليأس من الحياة، حتى ليتساءل المرء عما إذا كانت نهاية اليأس قد دنتْ. هذا هو الأمل الذي يخامر الإنسان إذ يتأمل التشاؤم الشديد المنير الخيالى الذي يتسم به بعض المحدثين من الكتاب والفنانين والمفكرين. ولا يرى كاتب التمثيليات المبرز أبو نسكو شيئاً في العالم سوى "الفناء والوحشة والغرور والحقد والتفاهة أو المقت المرير العديم الفائدة... والصبحات يطبق عليها السكون فجأة... والأشباح يبتلعها ظلام الليل إلى الأبد..." فهو يرى الناس: "قردة لهم موهبة الكلام"، وأما بيكيت فيرى الناس "نسانيس سفاكة جاهلة" و"ذرية خبيثة"، وأما ركسروث فيرى "أن الحياة خليط مضطرب ملئ بالأطفال الطوال الذين كبروا فأصبحوا أكثر حماقة". وفي مواجهة مثل هذا التثبيط والسباب الذاتى لا يسع المرء إلا أن يشتاق إلى قليل من التخفف والانطلاق القديم، مهما كان الثمن.

وليس جيلنا أول جيل يكتشف ما فى هذا العالم من فرص ومآس، لكن إذا قدر لبعض أولئك الكتاب أن يتحقق قولهم، فإنه يكون أول جيل يغرق من فرط إشفاقه على نفسه، قال مونتين: "بالرغم من كل ما لدينا من نقائص فإن أبشع نقيصة أن نحتقر وجودنا".

إن الحياة قاسية، لكنها كانت دائماً قاسية والنظرة الصائبة الوحيدة للحياة هى، كما كانت دائماً، نظرة تقوم على إدراك واضح الرؤية– إدراك وليس قبولاً حتماً– لعناصر المأساة والسخرية والحماقة في الحياة. إنها نظرة قائمة كذلك على إدراك الإنسان لقصوره ونواحى ضعفه، والحقائق الثابتة في دورة الحياة وكافة الأحزان واللامعقوليات والإساءات التى تؤذى البدن والروح. وأى إنسان لا يدرك هذا كله إما أن يكون صغيراً جداً أو غبياً جداً وربما كليهما. ولا يسهل على المرء أن يتبين لماذا يذرف الدمع بعض المفكرين في منتصف القرن العشرين حزناً على ظروف عاشتها مئات الأجيال بدون مثل هذا الإشفاق الذاتى ؟

ومن الصعوبات أن طموح الإنسان الأوربى يرتفع بسرعة على مستوى أدائه، فلما تهيأ له قدر متواضع نسبياً من التقدم في عدالة وكرامة الحياة الإنسانية، سرعان ما أخذ يحلم بأن في وسعه أن يصوغ عالماً ينعم بكامل العدالة والكرامة، وهذا اعتقاد من شأنه أن يسبب شيئاً من خيبة الأمل، وقد قال فرانكل:–

"إن ثورة النزعة العصرية كانت ثورة خلقية على نطاق خارق، وتغييراً جذرياً لما في وسع الخيال الإنسانى أن يتصوره ويطلبه. وقد غيرت الأبعاد الأساسية التي نقيس بها السعادة والشقاء والنجاح والفشل، ومنحتنا الشعور بأننا نصنع تاريخنا وأدت بنا إلى أن نفرض مطالب جديدة عسيرة على أنفسنا وعلى قادتنا، وأطلقت من عقالها النظرة القلقة إلى

عالم يمكن أن يتحرر فيه الناس من أعباء قديمة قدم الدهر فيضعوا مثلهم ويسيطروا على حياقم".

وإذا احتفظنا بمثل هذه الآمثال العالية في حدود معقولة فإلها تمنع التواكل والرضا بمنجزات الماضى وتدفعنا إلى أهداف أعلى شأناً. أما عندما تخرج من أيدينا هذه الأمانة الطليقة فإلها تؤدى بنا إلى آفاق خيالية بين رائعة بأن الحياة يمكن أن تكون كاملة وخيبة أمل مريرة عندما لا تتحقق هذه الأحلام.

ويدرك العقلاء أنه لن يجيئ زمان تتحرر فيه الإنسانية من خطر وشيك. ولن نضع حداً للقسوة والعنف والوحشية إلا بجهد لا يكل، إذا قدر لنا أن نضع لها حداً على الإطلاق، ولسوف يظل الكسل والتوانى والاسترخاء الناجم عن الترف والدعة متربصاً بنا دائماً في انتظار الانقضاض علينا ثم إن الصرامة وفراغ الروح والتقليد الضيق الأفق إنما هي أمراض قد تصيب أى مجتمع. ولن يستطيع مجتمع أن يجسم موقف الفرد إزاء التنظيم ولن يتبين مجتمع كيف يصبح متحضراً دون المخاطرة بأن يصبح متحضراً أكثر مما ينبغى. ولن يحسم المجتمع ما بين المساواة والتفوق من شد وجذب.

إعادة تنظيم الوفرة:-

إن كل من يفهم مقتضيات التجديد الدائم لابد أن ينظر إلى اتجاه الابتعاد عن التفاؤل بشئ من الحذر. ولابد أن يعرف المرء بأن تفاؤلنا في الماضى

كان زائداً على الحد المعقول إلى درجة السذاجة والعبط. لكن قبل أن نقبل الحكم الذي أصبح صيحة عصرية جديدة في بعض الدوائر اليوم بأنه كان خطأً مؤسفاً يحسن بنا أن نتأمل الموضوع في هدوء.

فإذا استطعنا أن نترك جانباً فكرة الماضى السعيد والتثبيط الجديد وننظر إلى الموضوع من وجهة نظر التجديد المجتمعى والفردى، فلا يمكن أن يختلف اثنان على القيم الإيجابية الصحيحة. فالنمو والخلق والتجديد تقتضى شيئاً من الانطلاق كضرورة حتمية. ولا يتمنى الإنسان العودة إلى التفاؤل المسرف الذي احتاج العالم الغربى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الذي يصفه هاوسمان بقوله: "إن بيت الأوهام رخيص البناء لكنه لايقى ساكنيه من التيارات الهوائية". لكن لا يستطيع المرء كذلك أن يرحب بالتحسر المفتر للهمة الذي أَبح صيحة العصر في بعض الدوائر اليوم. ولعل الاتجاه الرزين الضجر بالأوهام يبدو اتجاهاً ناضجاً رائعاً، لكنه اتجاه لا يقوى على التصدى لمقتضيات النمو الحركة والعمل الحيوى في عالم اليوم.

على أن معظم الأمريكيين لم يستسلموا حقيقة قط لاتجاهات التثبيط العصرية والضجر العالمي. وقد قال أندريه مورروا عن الأمريكيين ذات مرة: "إنهم باختصار قوم متفائلون" وما زال هذا الحكم صحيحاً ولا يعتبر التفاؤل تهمة، فإن قدرة شعبنا على أن يؤمن بعزيمة لا تلين بأن هذا العالم جدير بالإنقاذ، وإن الذكاء والجهد وحسن النية قد تنقذه إنما هى من أحب وأعز الخصال الأمريكية.

وما من عاقل بوسعه أن يقبل الجوانب الفجة في تفاؤلنا، لكننا إذا فقدنا ذلك التفاؤل كنا يقيناً شعباً أقل نشاطاً وحماساً، شعباً أقل شهامة وأقل مخاطرة وإقداماً، وتختفى النكهة والكرم من أسلوب حياتنا القومية وربما اختفت معهما ما له من أثر على العالم.

الفصل الثاني عشر

الإنحلال الخلقى والتجديد

الإتفاق العام في مجتمع حر:ـ

لعله قد أصبح الآن واضحاً لماذا ينبغى على كل من يهتم بدوام تجديد المجتمع أن يهتم بتجديد قيم هذا المجتمع ومعتقداته فالمجتمعات تتجدد إذا قدر لها أن تتجدد – على يد أناس يؤمنون بشئ، يهتمون بشئ ويدافعون عن شئ. فماذا يمكن أن يقال عن القيم والمعتقدات الأمريكية؟.

لعلنا نبدأ بالتساؤل عما إذا كان في أمريكا أى اتفاق عام بالنسبة للقيم. ويقول كثير من المتشائمين الأمريكيين إنه لا يوجد مثل هذا الاتفاق، بل هناك آخرون يؤكدون أنه ينبغى ألا يوجد مثل هذا الاتفاق. وهؤلاء عادة ممن يهتمون أشد اهتماماً بحرية الفرد وبتنوع وتعدد الفكر كأسلوب حياة، وترهبهم مجرد الإشارة إلى فلسفة أو أخلاق رسمية ويخشون أن يكون السعى إلى أى أساس مشترك في قيمنا من شأنه أن يقضى في النهاية على تعدد القيم.

وأول ما ينبغى أن يقال هنا إنه في اى مجتمع يؤدى وظيفته بنجاح يوجد قدر من الاتفاق العام، وبدونه تتفرق كلمة المجتمع، ولا يمكن لأية

مجموعة من القوانين أن تحول دون الفوضى في مجتمع ينقصه اتفاق ما على بعض المفاهيم الخلقية.

ولا يمكن لنظام من التدابير الاجتماعية، مهماً بلغ من البراعة ومهماً اتسم بالديمقراطية أن يكون جديراً بالحفاظ على الحرية ما لم يؤازره بعض العادات والاتجاهات التي يتقاسمها أعضاء المجتمع. ولسوف تكون مطالب الفرد موضع نزاع محتمل دائم ولا يمكن للحرية الفردية أن تصمد إزاء الضغوط التي تجابهها ما لم تكن مؤيدة بعادات متغلغلة في الفكر والعمل. فإذا نشأ الصغار على أساطير الأحرار وإذا شاهدوا آباءهم وأجدادهم يعملون دفاعاً عن الحرية، وإذا وجهتهم التقاليد المرعية إلى التقاليد التى يتصرف بها الأحرار، فإن فرص الحرية تكون طيبة نسبياً، قوم من رجال ونساء نشأوا على ذلك لابد أن "يشموا سوء الحكم من بعيد ويحسوا باقتراب الطغيان في كل نسمة ملوثة".

لكن الحرية ينبعى أن تكون مؤيدة بما هو أكثر من العادات والاتجاهات. ذلك أن العادات والاتجاهات يمكن أن تتغير. وفي العالم الحديث هناك قعقعة مستمرة منبعثة من تحطيم العادات القديمة، وهي من الأصوات المميزة في زماننا، ولكى يتحقق الدوام لفكرة الحرية لابد أن تتغلغل في أفكار الإنسان الفلسفية والدينية. ولا يكفى أن يعتقد المرء أن الحرية خصلة طيبة من تراثه، وأسلوب حياته. فلابد أن يؤمن كذلك أنها صفة سليمة لازمة، أو بمعنى آخر أن الولاء للحرية يجب أن ينمو طبيعياً من قيم الإنسان الخلقية الأدبية.

ولقد كان لمجتمعنا دائماً قسط من الاتفاق العام بالنسبة لهذه القيم، وما زلنا كذلك بالرغم مما يقوله النقاد. ومهما بدأ أسلوب القيم لدينا مهلهلاً فإننا نتفق فعلاً على حقائق معينة ونتقاسم أهدافاً معينة ونتقاسم أهدافاً معينة ونعترف بسلامة قواعد معينة. وبالمقارنة بحصيلة التجارب الإنسانية، كما يذكرها المؤرخون وعلماء الأجناس، فإن القيم الغالبة في المجتمع الأمريكي تمثل مجالاً ضيقاً نوعاً ما، وما يبدو في صورة خلاف يتضح في ضوء النظرة العريضة أنه جدل على التفاصيل.

ولا يعتبر اتفاقنا في هذه الأمور بحال من الأحوال منافياً لمبدأ التعدد، ذلك أن الاتفاق لدينا هو الحرية والمنطق، ثم إنه يتيح النقد ويدعو إليه، كما أنه عرضة لمختلف التفسيرات والتعديلات والنمو المستمر، فهو حر طليق غير مكبوت.

ولا يقتضى الأمر أن يتفق كل إنسان حتى يقوم الاتفاق العام على قدميه إنما يلزم أن يكون ثمة اتفاق مبدئي بين نسبة جوهرية من الرجال والنساء الذين يؤهلهم ذكاؤهم وحماسهم ووعيهم وشعورهم بالمسئولية لصياغة هدف المجتمع.

وللاتفاق العام أهمية خاصة لدى كل مهتم بالتجديد والابتكار. فإذا تمتع المجتمع بقدر معقول من الاتفاق، كان في وسعه أن يقبل على التجديد الشامل دون أن يفقد ترابطه أو أسلوبه المميز، ولولا عنصر الدوام الذي يوفره الاتفاق الأمريكي العام لأدى ولع الأمريكيين بالتجديد والتنوع إلى الفوضى والاضطراب.

وفي مجتمع متعدد القيم لابد ان يكون الاتفاق على ما يصح أن يسميه المرء مستوى "وسطا" من القيم، وبدعى أنه لا يستطيع أن يعالج التوافه السطحية في أخلاق الناس وعاداقمم اليومية، كما أنه لا يستطيع أن يتحسس الأعماق. إنما بوسعه أن يعالج القيم الأساسية التي تتحكم في مسلك الإنسان كما يعالج مفاهيم كالحرية والعدالة. لكن هذا القيم إنما تسبح فوق مناهل أعمق منها من المعتقدات الفلسفية والدينية. وهي تستمد قوتها من أعمق أفكار الإنسان المتعلقة بطبيعته هو، على أننا عندما نبلغ هذه الأعماق نلتقي بأمور تخص الفرد بصق بتحتم معه ألا يسأل أن يقبل فيها حلا وسطاً.

ودفع الاتفاق عنوة إلى أعماق الاعتقاد أو لا يحتمل، كما أن بقاء الإنسان مشغولاً بالأمور السطيحة أمر لا معنى له؛ لذلك فإن المجتمع المتعدد القيم يسعى في تعقل ورشاد إلى إقامة اتفاقه على مستوى الأعماق المتوسطة.

فعلى هذا المستوى يجد المرء لدينا مثل الحرية والمساواة وتكافؤ الفرص ومفهوم قيمة الإنسان وكرامته وفكرة العدالة وحلم التآخى. وكوننا لنا دائماً مخلصين لهذه القيم المشتركة لا يدل على اضطراب أو فشل في الاتفاق، فنحن نعرف القيم التى لا نخلص لها. وقد يسأل سائل: "وأى فرق هناك في أن نتفق على قيمنا إذا كنا لا نكن لها الإخلاص؟" والجواب هو: أنه إذا كان الإنسان مهتماً بالشفاء، فهناك فرق دائماً فيما

يشكو منه المريض، فهذا المجتمع لا يعانى الاضطراب بل يعانى عدم الإخلاص.

هل من عبرة؟:

في النصف الأول من القرن العشرين اعتقد عدد كبير من الناس أن خير ما يصنعونه هو أن يحتفظوا بحياد "علمى" أو "لا أدرية" بالنسبة للقيم. وهنا يجب أن نحرص على أن نلوم العلماء على آراء زج بها أفراد ليس لهم من العلم إلا قشوره. وصحيح أن العلماء الطبيعيين والاجتماعيين قد وجدوا أن الحياد بالنسبة لقيم معينة أمر لازم لعملهم، من ذلك مثلاً، أن مسألة ما إذا كانت نظرية النشوء والارتقاء شيئاً طيباً أو شيئاً سيئاً من الزاوية الخلقية لا يمكن إلا أن تعطل العلماء عن الإجابة عن السؤال الذي حققة، وهو ما إذا كانت النظرية صحيحة أو خاطئة.

لكن فكرة امتداد الحياد بالنسبة لكافة القيم على الحياة كلها إنما هى فكرة حمقاء، فأصحاب هذه الفكرة لم ينجحوا قط في تصرفهم في حياقم الشخصية كما لو كانوا لا أدريين كلية بالنسبة للقيم. وما برحوا يغضبون من الناحية الخلقية إذا غشهم أحد ويحلقون من الناحية الخلقية فيما إذا مسهم أحد بسوء. لكن على الرغم من أهم لا يتصرفون كلا أدريين من الناحية الخلقية فيما يمس مصالحهم الشخصية من أمور، فقد فعلوا ذلك دائماً في الأمور التي تمس المجتمع بأسره. ويبدو كما لو كانوا

يعتقدون أنه ينبغى عليهم أن يظلوا محايدين في أية مناقشة عامة للقيم الخلقية.

وهذا التردد من جانب بعض المحدثين في تناول القيم الخلقية تزيده فكرة النسبية الخلقية تفاقماً، إذ يتضح من البحث الرزين أن مفاهيمنا الخلقية قد تحولت وتبدلت على مر السنين ، وأن مجتمعات أخرى لها مفاهيم خلقية أخرى وهكذا نشأت فكرة أن كافة الأحكام الخلقية أحكام نسبية مرتبطة بالمكان الذي تصدر فيه. ولقد أدرك العلماء الاجتماعيون هذه الفكرة بعد نضال عنيف، وينبغى ألا ننكر عليهم الثمار المشروعة لهذا النضال، لكن يحق لنا أن نعبر عن قلقنا عندما تقبل علينا أعداد متزايدة من الناس كتبرير لنوع خلقى من مبدأ "دع الأمور تسير دون تدخل"، أو فكرة الاتجاه إلى أنه إذا احتمل الإنسان كل أنواع القيم وسمح لها بأن تتصارع مع بعضها بعضاً، فلابد أن يتمخض عنها شئ طيب، ويتجه هذا الرأى لى أنه ليس من الضروري– بل لعله ليس من المناسب– أن يعمل الإنسان من أجل الأمور التى يؤمن بها؛ لأن المنافسة بين القيم كفيلة بحسم الأمور، وان الإنسان ليس بحاجة إلى أن يؤمن بأية قيم معينة، وحسبه أن يحتفظ بموقف المراقب المهتم بالأمر.

ويبلغ هذا الوضع حد الحماقة إذا تصورنا انتشار هذا الاتجاه بين السكان جميعاً فحينئذ لن يؤمن أحد بشئ، ويصبح كل إنسان مراقباً يتابع المنافسة. لكن لن يكون أمام المراقبين ما يراقبونه لأنه لن يكون لأحد أية قيم.

ومن الصعوبات الأشد مراوغة تلك السلبية التي تجابه هذا الجيل وجابهت الجيل السابق له بالنسبة للنظرة الخلقية الجادة، سلبية بلغت ذورتها في أوائل هذا القرن، وما زالت تؤثر في كثير من المثقفين رجال ونساء، فقد نشأ جيلنا وجعل آباءنا في وقت كانت فيه الأضواء الرائدة في عالم الفكر– من فنانين وكتاب وعلماء وأساتذة– يشنون حرباً لا هوادة فيها ليحرروا أنفسهم من أوضاع القرن التاسع عشر التقليدية الخانقة. وكثيراً ما كان أولئك الثوار أنفسهم ذوى نزعة خلقية قوية، وكم ناضلوا من أجل خلق أرفع مما استطاعوا أن يجدوا في تقاليد زمانهم، ورأوا أن ثمة عنصر رياء رهيباً في كل التعبيرات المعاصرة للمثالية حتى تشككوا في كل المواعظ وكل كلام قديم يعبر عن قيم خلقية.

وفي مبدأ الأمر، كان تفجير البالونات الخلقية التقليدية عملية محفوفة بالخطر ومجازفة لا يقدم عليها إلا "الشجعان"، لكنها سرعان ما أصبحت لعبة يستطيع أن يلعبها الجميع، بل لعبها الجميع، بخيال متناقض الخصوبة ومزيد من التقليد الأجوف.

وليس ثمة شك في أن الأوضاع التقليدية الصارمة في العصر الفيكتورى كانت عائقاً للدفعات الخلاقة في القرن العشرين. لكن هذه المعركة قد انتهت وأصبح أولئك الذين ما فتئوا يلقون بأنفسهم في المعمعة كما لو كان العدو ما زال قوياً، مبعث الضحك، وأمرهم مفهوم طبعاً، فمن الناس من لا يستطيع أن يقاوم إغراء بذل الجهد الضائع في القتال من جديد في معارك قديمة مع خصوم تمت هزيمتهم من قديم الزمن . لكن

كلما انهمكنا في هذا الاتجاه قلت قدرتنا على الاستعداد للمعارك الحقيقية الحالية فلم تعد أوضاع القرن التاسع عشر الخلقية التقليدية تعوقنا في شئ بعد أن هدم صرحها المهاجمون الغيورون، وليست المشكلة مشكلة دق الحطام وسحقها إنما هى أن نصنعه لحماية أنفسنا من الأنواء.

وهذا يغير تغييراً جذرياً الاتجاه الذي ينبغى أن تستمد منه مبادأة خلقية، وكان الناقد المتشكك "للوضع القائم" فيما مضى هو المسئول عن بذل الجهد الكبير، أما اليوم فإن المتشكك هو "الوضع القائم"، فمن يتحتم عليه أن يبذل الجهد هو الرجل الذى يسعى إلى إقامة نظام خلقى جديد، وفي هذه الظروف فإن الفرد الذى يسخر، بحكم العادة من كل تعبير عن الغيرة الخلقية إنما هو إنسان عتيق الطراز عفا عليه الزمان.

ويؤثر كثير من مفكرى العصر أن يمشوا حفاة الأقدام فوق جمر الفحم على أن يتفوهوا بتعبير صريح عن قلق خلقى. فتراهم يضطرون إلى أن يقولوا ما يريدون قوله في تورية ويخلطونه بالتشكك والدعاية أو يغلفونه بالتشاؤم. لكن الحرج من التعبير عن الأمور الخلقية الجادة إنما هو مرض أناس بلغوا من التصنع والسفسطة شاراً بعيداً. أما الشعب البعيد عن التصنع فيرى أن من الطبيعى أن يستشير أعمق قيم لديه ويبدى ولاءه لهذه القيم ، يتوقع أن تؤثر هذه القيم في مسلكه في حدود القدرة الإنسانية غير المعصومة من الخطأ ولن يرى غرابة أو حرجاً في الحديث عنها.

ومن الخطأ طبعاً أن يسوى المرء بين الخلق الجاد وبين التحكم العقيدى والتزمت والالتزام بالأوضاع القائمة. كان سقراط، وهو أشد الناس غيرة على الأخلاق أبعد ما يكون عن التزمت والإصرار المذهبى، وكان قليل الاحترام للأفكار "المحترمة" في زمانه.

ولسنا نزعم أن الاهتمام الجاد الصريح بالتجديد الخلقى من شأنه أن ينقلنا إلى أرض وأفة الظلال بعيداً عن المتاعب التى أرقت الإنسان منذ بدء الخليقة، فإن الجد الخلقى لا يحسم المشاكل المعقدة، لكنه يدفعنا إلى مواجهة المشاكل بدلاً من الهروب منها، فالوضوح الذهنى لا يتقل لنا الوحوش الضارية، لكنه يجنبنا مذلة قتال الوحوش المصنوعة من الورق في الوقت الذى تحاصرنا فيه الوحوش الحقيقة من كل مكان، لكن هذه ليست مزايا بسيطة.

الخزان الذي ينضب:-

يحدثنا جاك بارزون عن السيدة العجوز الضئيلة التى شكت من أن "العاصفة الرعدية الحديثة لم تعد تنقى الجو"، وهذا اتجاه ذهني ليس مقصوراً على العجائز أو الظواهر الجوية. فلنستمع إلى هذه الأبيات الحزينة:

إلى من أستطيع أن أتحدث اليوم؟

لقد ملك السيد المهذب.

وتسلط الرجل العنيف على كل إنسان

إلى من أستطيع أن أتحدث اليوم؟

إن عدم المساواة الذي يفسد الأرض.

لا نهاية له.

إلى من أستطيع أن أتحدث اليوم.

لم يعد هناك رجال أفاضل.

واستسلمت الأرض ليجرمين.

ولعلنا نحسب أن كراهية الشاعر للحاضر وحنينه إلى ماضى الزمن الحلو البديع صورة عصرية جداً، لكن صاحب هذه القصيدة ليس من الساخطين على القرن العشرين، بل كتبها برجل فكر في الانتحار منذ أربعة آلاف سنة في عصر المملكة الوسطى في مصر القديمة.

فمن السمات الملازمة للإنسان الاعتقاد بأن الفضائل القديمة بسبيل الاختفاء، وأن القيم القديمة بسبيل الانقراض، ولم يعد أسلوب الحياة القديم القويم موضع تمجيد، ويبدو أن كثيراً من الناس اليوم يتصورون أن قيمنا وأخلاقنا كشعب والتزامنا بالفضيلة والعدل تشبه خزاناً ملئ من قديم الزمن (قرابة أيام الجدود) ثم اخذ ما فيه يتناقص بالخرير منذ ذلك الحين، لكن أجدادنا تصوروا أن الخزان قد ملأه

أجدادهم وبدأ خريره من ذلك الزمن البعيد، ثم إن أجدادهم تصوروا نفس الشئ فلماذا لم ينضب الخزان؟.

والجواب عن ذلك أن النظام الخلقى يمر في عملية إعادة توليد، كما يمر فى عملية انحلال. وقد كتب جوزيف كامبل يقول:

"لا يهزم الموت إلا المولد... ففى داخل الروح، وفى داخل الكيان الاجتماعى لابد أن يكون هناك– إذا امتد بنا العمر– عملية مستمرة من الولادة الجديدة كى تلغى أثر عملية الموت المتلاحقة".

ويصدق هذا أكثر ما يصدق على مجال القيم الإنسانية. فالناس تفسد دائماً كل رمز قديم وتنحرف عن الحقائق القديمة فما من مثل أعلى أو فكرة بديعة وجيهة جديدة إلا وتصبح قديمة عفنة خلال جيل واحد. فنحن نقضى على قيمنا بالطقوس ونكتم أنفاسها بمراسيم اجتماعية فلا تلبث أن تفقد كل معنى، لكن في الوقت الذى يخسر فيه البعض إيمانهم، يكسب غيرهم استضواء روحياً جديداً، بينما يزحف على بعضهم الكسل والرياء في المجال الخلقى من حياقم، كما يجيئ البعض الآخر بحيوية ومعنى جديد للسعى الخلقى.

ولا يقوم الناس بأدوار متساوية الأهمية في إعادة خلق القيم وصياغتها من جديد، لكن تشترك في هذه العملية من الناس نسبة أكبر كثيراً مما يتصور المرء. وقد قال آمييل، "إن حياة كل إنسان عبارة عن دعوة إلى عقيدة، وتمارس دعاية صامتة لا تستطيع عنها حولاً، بل تنحو

إلى تحويل الكون والإنسانية إلى وجهتها. إن سلوك كل إنسان عبارة عن موعظة غير منطوقة يلقنها للآخرين دائماً أبداً".

والصغار لا يستوعبون قيم الجماعة التي ينتمون إليها بتعلم كلمات "الحق" و"العدالة" و"الخير" وما إليها أو مدلول هذه الكلمات، إنما يتعلمون اتجاهات وعادات وأساليب مميزة، يتعلمونها في سياق معاملاتهم الشخصية مع أهليهم ورفاقهم، يتعلمونها في العادى الروتينى من أمور الحياة وفي الخطير المثير، بل يتعلمونها من خلال الأغانى والقصص والتمثيليات والألعاب، وهم لا يتعلمون مبادئ خلقية، إنما يجارون ذوى الخلق (أو عديمى الخلق) وهم لا يحللون أو يعددون الخصال التى يودون تطويرها ويميزون من لهم هذه الخصال، وهذا هو السبب الذي يجعل الصغار في حاجة إلى نماذج، في كل من حياتهم الخيالية وفي بيئتهم الحقيقية، نماذج لما يمكن أن يكون عليه الإنسان في أحسن صورة له.

وثمة قول شائع بين ذوى الفكر اليوم بأن المجتمع المطمئن إلى معتقداته لا يتحدث عنها وأن المجتمع الذى يردد معتقداته هو المجتمع الذي يفتقد الإيمان بها. وربما كان هذا صحيحاً في المجتمعات القديمة المتجانسة نسبياً، لكنه لم يكن صحيحاً بالنسبة لأى مجتمع حديث. فالمجتمع الحديث يتكلم بالضرورة عن معتقداته ويجادل بشأنها ويمجدها ويبرزها إبرازاً مثيراً.

ومساعدة كل جيل على إعادة اكتشاف معنى الحرية والعدالة إنما هى مهمة دائمة لأى مجتمع. فكل جيل تقدم له انتصارات لم يكسبها

بنفسه، والجيل الذي ناصل من أجل الحرية قد يترك هذه الحرية للجيل التالى، لكنه لا يستطيع أن يترك له المعرفة الشخصية الوطيدة بما يقتضيه الأمر من شجاعة واحتمال كسب الحرية.

وفي بعض الحالات يجد الشباب أن المبادئ الخلقية التي يقدمها آباؤهم لم تعد لائقة بعالم سريع التغير. وكثيراً ما يجدون في مجال الأخلاق أن المبادئ التى يرددها آباؤهم تتعارض مع السلوك الذي بيديه أولئك الآباء. وهذا أمر محير لكنه ليس كارثة، ويخطئ أولئك الكتاب الذين يتصورون أنه يحطم كل احتمال خلقى بقوم به الشاب، وأول مهمة في التجديد في المجال الخلقى هى دائماً المواجهة الصعبة بين المثل الأعلى والحقيقة بين المبدأ والممارسة العملية، وما أجدر الشباب بتحقيق هذه المواجهة، فإن نضارة فكرهم وثورية مزاجهم تجعلهم أقدر ما يكونون على تجريد مثلهم العليا الأخيرة من ثياب الرياء.

ومن أصعب المشاكل التى نواجهها تمكين الشباب من الإسهام في المهام الكبرى في زمانهم.. وقد وجوا أخيراً متنفساً بناء في هذا الصدد في مشروعات مثل "فرق السلام"، ولكن مثل هذه الفرص ضئيلة نادرة في مجتمع تكنولوجي متطور. لقد كان في وسع الإسكندر الأكبر أن يغزو نصف العالم المعروف في أوائل عشريناته، وكان بوسع فتية نيوإنجلند في القرن التاسع عشر أن يكونوا قباطنة لسفنهم قبل أن يتجاوزوا العشرين، لكن عصرنا يعلق أهمية ضخمة على التدريب والخبرة الطويلة. ولقد أقمنا مجتمعنا بطريقة تجعل معظم الفرص المتاحة أمام المراهق اليوم إما تافهة أولاً

تعدو أن تكون حبراً على ورق. وعندما نسعى إلى أن نثبت فيه روح النضال الخلقى كثيراً ما نقتصر على دعوته إلى حراسة خزان نضب ما فيه ألا، ما أتفه مثل هذه المهمة وأبعثها على الملل بالنسبة للعقول المتحفزة وأفئدة الشباب الوثابة!، فليس من العجيب إذن أن يعتقد كثير من الشباب أن الأمر الخلقى لا يعدو أن يكون شيئاً من ابتداء الآباء وعمداء الجامعات وخطباء حفلات التخرج لمجرد إدخال الملل في نفوس الشباب.

وفكرة الخزان الذي ينضب ما فيه فكرة غير موفقة لأنها توحى بأن المشكلة عبارة عن الاحتفاظ بشئ لا يمكن أن يضاف إليه جديد، وبهذه الطريقة فهى توحى بالوقوف موقف الدفاع وتغفل كل احتمال للجهد الخلاق، ورجال يفكرون بمنطق الخزان الذي كاد يفرغ ما فيه لابد أن يشتغلوا بمشكلة الحفاظ على ما تبقى منه بصورة تصرفهم عن الخلق أو البناء لمستقبل مجهول.

فبدلاً من أن نوحى للشباب بأن مبعثهم تنحصر عن القيم القديمة، ينبغى أن نقول لهم الحقيقة الصارمة المحفزة بأن مهمتهم هى إعادة بناء تلك القيم على الدوام في سلوكهم وفي مواجهة المعضلات والنكبات التي يتمخض عنها زمانهم، وبدلاً من أن نوحى إليهم بأن المثل العليا التى نعتز بها مخلدة في ذكرى المعارك القديمة وأمجاد الأسلاف، ينبنى أن نقول لهم إن كل جيل يناضل من جديد في معارك حاسمة، فإما أن يأتى بحيوية جديد للمثل العليا أو يدعها تضمحل.

وقصارى القول إن تغذية القيم التى تحفظ على المجتمع روح الخلق- أو السماح لهذه الروح بالتراخى- عملية مستمرة كل يوم، خيراً كان ذلك أم شراً. وهي ليست مجرد درس في أمجاد الأسلاف مما يخرجه بعض الكبار في صورة تبعث على الملل والضجر، بل إنها عملية مستمرة بين الغبار والضجيج في غمار السوق والصحف اليومية والفصل المدرسى ومسكن المدينة وحظيرة القرية، وتبدو أكثر ما تكون حركة ونشاطاً وحيوية خلال ما يفعله الناس خلال ما يقولونه وليس النهج الخلقى شيئاً ساكناً عديم الحركة، ولا هو شئ يودع في الوثائق التاريخية أو يخبأ بعيداً عن الأعين مع مصوغات الأسرة أو يدخر في أذهان الأتقياء الصالحين وشيوخ الآيينيين من حفظة النواميس الأدبية، إنه سمة من سمات نظام اجتماعى نشط، وهو بهذه الصفة شئ حى متغير، عرضة للانحلال والاضمحلال، كما أنه عرضة لنبعض الحياة من جديد، ولن يكون بحال خيراً من الجيل المتكفل به الساهر عليه.

وليس أجدر ممن يدرك هذه لاحقيقة ويقبل مقتضياتها من الرجال والنساء بأن يجددوا النهج الخلقى، ويجددوا معه مجتمعهم سواء بسواء، ولسوف يفهمون أن مهام التجديد لا نهاية لها، ويفطنون إلى أن مجتمعهم ليس كآلة تصنع في لحظة من الزمن ثم تجرى صيانتها بأقل جهد، فالمجتمع يعاد بناؤه دواماً، خيراً كان أم شراً، بيد أبنائه، ولسوف يكون لهذا القول في نفوس البعض وقع المسئولية الثقيلة، كما يكون لغيرهم بمثابة دعوة إلى العلا.

الفهرس